

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب

القرآن

# علومه وتفسيره وإعجازه

تأليف

الدكتور أحمد عباس البدوي  
الأستاذ المشارك بجامعة القرآن الكريم

## بسم الله الرحمن الرحيم الباب الأول علوم القرآن

### تنزيلات القرآن الكريم

هذا مبحث مهم في علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعا، لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن، وأنه كلام الله، وأساس للتصديق بنبوته الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الإسلام حق، ولأجل الإحاطة بهذا النزول، والتدليل له، وكيفيته وحكمته. معنى نزول القرآن

وردت كلمة النزول وما تصرف منها في الكتاب والسنة، ومن أمثلته قوله سبحانه وتعالى: "وبالحق أنزلناه وبحق نزل". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر النزول في اللغة:- يطلق ويراد به الحلول في مكان والأوي به، ومنه قولهم: "نزل الأمير المدينة" والمتعدي منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان وإيواءه به. ومنه قوله تعالى: "رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين". ويطلق النزول أيضا على انحدار الشيء من علو إلى سفلى. نحو "نزل فلا من الجبل" والمتعدي منه يكون معناه تحريك الشيء من علو إلى سفلى. ومنه قوله سبحانه وتعالى: "انزل من السماء ماء".

ولا ريب أن كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته في إنزال الله القرآن، ولا في نزول القرآن من الله. لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية، والقرآن ليس جسما حتى يحل في مكان أو منحدر من علو إلى سفلى. إذا فحن بحاجة إلى التجوز، والمجاز باب واسع وميدانه فسح. وليكن المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع اطلاقاته، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هو اللزوم، لأن إنزال شيء إلى شيء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشيء به إن كان عاقلا، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقا.

### تنزيلات القرآن الكريم

شرف الله تعالى هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزيلات:-

أ - التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ، ودليله قول الله سبحانه "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمها إلا الله تعالى، ومن أطلعه على غيبه. وكان جملة لا ممزقا، لأنه الظاهر من اللفظ عن الإطلاق، ولا صارف عنه. وحكمة هذا النزول ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه، وإقامته سجلا جامعا لكل ما قضى الله وقدر، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين. فهو شاهد ناطق، ومظهر من أروع المظاهر، الدالة على عظمة الله، وعلمه، وإرادته، وحكمته، وواسع سلطانه وقدرته، ولا ريب أن الإيمان به يقوي إيمان العبد بربه من هذه النواحي، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أفضية وشئونه في عبادته، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرائها وسرائها، كما قال - جل شأنه. - "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور". والإيمان باللوح المحفوظ، وبالكتاب فيه، أثر صالح في استقامة المؤمن على الجادة، وتفانيه في طاعة الله ومرضيه، وبعد عن سخطه ومعاصيه، لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه، مسجلة لديه في كتابه، كما قال جل ذكره: "وكل صغير وكبير مستطر".

ب- التنزيل الثاني للقرآن:- كان هذا التنزيل إلى بيت العزة في السماء الدنيا والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان "إنا أنزلناه في ليلة مباركة".

وفي سورة القدر "إنا أنزلناه في ليلة القدر" وفي سورة البقرة "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن". دلت هذه الآيات الثلاثة على أن القرآن الكريم أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة كما في الدخان وتسمى ليلة القدر كما في سورة القدر وبأنها من ليالي شهر رمضان كما في البقرة، وإنما قلنا ذلك جمعا بين هذه النصوص في العمل بها، ورفعنا للتعارض فيها بينها. ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا لا في ليلة واحدة، بل في مدى سنين عددا، فتعين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به هذه الآيات الثلاثة نزولا آخر غير النزول على النبي صلى الله عليه وسلم. وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول، وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا، كما تدل الروايات الآتية:

1- أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: "فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم".

2- وعنه قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة". هذين الحديثين وهناك أحاديث أخرى ذكرت كلها في هذا الباب وكلها صحيحة كما قال السيوطي وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس غير أنها لها حكم المرفوع لأن قول الصحابي لا مجال للرأي فيه، ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم صلى الله عليه وسلم، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بها. وهناك أقوال أخرى مجموعة بهذه الأدلة مثل أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين ينزل في كل ليلة قدر منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة ثم ينزل بعد ذلك منجما في جميع السنة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وقول ثالث أنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة في سائر الأزمان على النبي صلى الله عليه وسلم. وكان صاحب هذا القول ينفي النزول جملة إلى بيت العزة في ليلة القدر.

ونذكروا قولاً رابعا أيضا هو أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظه نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة. ولكن هذه الأقوال بمعزل عن التحقيق، وهي محجوجة بالأدلة السابقة تأييدا للقول الأول.

و الحكمة في هذا النزول هو تفخيم أمر القرآن كما ذكر السيوطي نقلا عن أبي شامة، وكذلك تفخيم أمر من نزل عليه بأعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، وبإنزال مرتين، مرة جملة ومرة مفرقا بخلاف الكتب السابقة التي كانت تنزل جملة مرة واحدة.

ونذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهابا لشوق النبي صلى الله عليه وسلم ألف على حد قول القائل:

وأعظم ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

يقول الشيخ الزرقاني في مناهل العرفان: "وفي تعدد النزول وأماكنه، مرة في اللوح المحفوظ، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي صلى الله عليه وسلم. في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن الكريم وزيادة للإيمان به وباعت على الثقة فيه، لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وضحت له وجودات كثيرة كان ذلك أنفى للريب عنه، وأوعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، مما لو سجل في سجل واحد، أو كان له وجود واحد.

ج - التنزل الثالث:

هذا هو واسطة عقد التنزلات، لأنه المرحلة الأخيرة التي شاع منها النور على العالم، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام "نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين".

### كيفية أخذ جبريل للقرآن وعمن أخذ

الراجح في هذه المسألة والله تعالى أعلم، أن جبريل أخذ عن الله سماعاً، يؤيد ذلك ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) "إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صُغِقُوا وخروا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر سماء سألها أهلها: ما قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر".

وهناك أقوال أخرى منها ما قاله الطيبي "لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقف تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم فيلقيه إليه".

وكلمة لعل في هذا الرأي كما هو معلوم أنها لا تشفي دليلاً، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً. ومنها ما حكاه الماوردي بأن الحفظة نزلت القرآن على جبريل في عشرين ليلة وأن جبريل نزل على النبي في عشرين سنة. ولكن هذا الرأي لا دليل عليه ولا شبه دليل. وأياً ما تكون هذه الأقوال، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض، ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله وحده.

ما الذي نزل به جبريل؟

الذي نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد في إنشائها وترتيبها.

ولقد أسف بعض الناس فزعوا أن جبريل كان ينزل بمعاني القرآن وأن محمداً كان يعبر عنها بلغة العرب، وزعم آخرون بأن اللفظ لجبريل وأن الله تعالى كان يوحى إليه بالمعنى فقط وكلاهما قول باطل أثيم بل هو مدسوس على المسلمين ولا يساوي قيمة المداد الذي يكتب به وهو مصادم لصحيح الكتاب والسنة والإجماع، فكيف يكون القرآن معجزاً واللفظ لمحمد أو جبريل، ثم كيف تصح نسبة إلى الله واللفظ ليس لله؟ مع أن الله تعالى يقول: "حتى يسمع كلام الله".

مدة هذا النزول: ابتدأ هذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة والسلام، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة، وتقدر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً، تبعاً للخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة.

دليل تنجيم هذا النزول: والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيجه، قول الله تعالى في سورة الإسراء: "وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً". وقوله تعالى في سورة الفرقان: "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لثبتت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً".

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن:-

1- تكرر الوحي وتجدد نزول الملك به من جانب الحق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يملأ قلب الرسول صلى الله عليه وسلم سروراً وغطية تشرح صدره. وهذا فيه تثبيت لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية لفؤاده.

2- التي سير على الرسول صلى الله عليه وسلم من الله تعالى في حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه.

3- تهوين الشدائد عليه كلما اشتد الخصام بينه وبين أعدائه، هذه الشدائد التي كانت تحدث في أوقات مستحدث.

كل ما سبق يندرج تحت الحكمة الأولى وهي تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم. أما الحكمة الثانية فهي التدرج في تربية الأمة الإسلامية الناشئة علماً وعملاً وذلك من خلال تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية، تسهيل فهمه عليهم، التمهيد لكمال تحليهم عن عقائدهم الباطلة وتحكيمهم بالعقائد الحق والأخلاق الفاضلة، تثبيت قلب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين

الحكمة الثالثة: مسابرة الحوادث والطوارئ في تجديدها، فكلما جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه مثل إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومجاراة الوقائع والأقضية في حينها، ولفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها وإرشادهم إلى جادة الصواب

الحكمة الرابعة: الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام أحد من البشر.

### علوم القرآن

[مناهل العرفان في علوم القرآن - الزرقاني]

الوحي ودليله الشرعي

ما تقدم في نزول القرآن، لا يسلمه، ولا يقبله إلا من آمن بالوحي وأساليبه والاتصالات الروحية بالمالأ الأعلى، واستمداد الإنسان عن الله تعالى بوساطة الملك، على غير الطريقة المعتادة بين البشر. ولكن العقلية العصرية أصابها مس من المادية والإلحاد والمباح، فأصبح كثير من المتعلمين تعليماً مدرسياً ناقصاً، لا يهضمون هذه الحقائق العليا، ولا يستطيعون فهمها، بل يلقون حبالاً وعصياً في سبيل المؤمنين بها، ولا شبهة لهم فيما ذهبوا إليه إلا شكوك تلتفتوها من هنا وهناك يروجونها باسم العقل مرة، وباسم العلم مرة أخرى. لهذا نرى لزماً علينا أن نقف هنا بجانب الوحي وبقية نرفع بها النقاب عن حقيقته وأنواعه وكيف يأتيه، ثم نتبع ذلك بالأدلة العلمية والعقلية. ثم نختم بعلاج الشبهات التي تعترضهم ويعترضون بها في هذا الموضوع الخطير.

1- حقيقة الوحي وأنواعه وكيفية

الوحي لغة:- الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقته إلى غيرك، يقال وحيت إليه الكلام وأوحيت .

أما في الاصطلاح، فمعناه أن يعلم الله تعالى من اصطفاة من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية عن معتادة للبشر. ويكون على أنواع شي منه ما يكون مكاملة بين العبد وربيه، كما كلم الله موسى تكليماً . ومنه ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مصطفاه، ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجيء في تحققه ووقوعه، كما يجيء فلق الصبح في تبليجه وسطوعه، ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ... قال تعالى: "نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين".

مبين".  
ثم إن ملك الوحي هو الآخر يهبط على أساليب شيء: فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية، وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون، وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى ولكن يرى أثر التغيير والانفعال على صاحب الرسالة.  
والدليل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحياناً يأتيني مثل - صلصلة الجرس - وهو أشده عليه - فيغصم عنى وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول". قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتصب عرقاً.  
الدليل الشرعي للوحي:-

روى الطبراني عن النّوّاس بن سميان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمير تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سألها ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل (قال الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل".

شبه الجاحدين على الوحي: يراجع من مباحث في علوم القرآن/ مناع القطان

كيفية وحي الله إلى ملائكته:-

1- جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكة. "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة". وعلى إيحائه لهم "إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا".

وحديث النّوّاس بن سميان السابق بين أن كيفية الوحي تكلم من الله وسماع من الملائكة، وهول شديد لأثره.

2- ثبت أن القرآن الكريم كتب في اللوح المحفوظ "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" كما ثبت أنه نزل جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان.

لذلك ذهب العلماء في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية:-

1- أن جبريل تلقفه سماعاً من الله تعالى بلفظه المخصوص.

2- أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ.

3- أن جبريل ألقى إليه المعنى والألفاظ لجبريل أو لمحمد صلى الله عليه وسلم .

والرأي الأول هو الأصوب لما عليه أهل السنة والجماعة، ويؤده حديث النّوّاس السابق.

كيفية وحي الله إلى رسله:-

يوحي الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة، فالأول بواسطة جبريل عليه السلام والثاني له عدة طرق

1- الرؤيا الصالحة في المنام فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "أولما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

2- الكلام الإلهي يقظة بدون واسطة من وراء حجاب وهو ثابت لموسى عليه السلام قال تعالى: "وكلم الله موسى تكليماً" كما أنه ثابت على الأصح لرسولنا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج.

الوحي بواسطة الملك: وهو الذي بعفينا في هذا الموضوع إذ به نزل القرآن. وهو على حالتين:

الأولى:- وهي أشده على الرسول حيث يأتي مثل صلصلة الجرس، يثير عوامل الانتباه مهياً النفس بكل قواها القبول أثره.

والثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً يأتي في صورة بشر وهذه الحالة أخف من سابقتها حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ويأسر رسول النبوة عند سماعه ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

## جمع القرآن وتدوينه

[مناهل العرفان]

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور، وتطلق تارة أخرى، ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلمات وآيات وسور.

جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور:-

نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت همته بادئ ذي بدء منصرفة إلى أن يحفظه ويستظهره، ثم يقرؤه الناس على مكث ليحفظوه ويستظهرونه، ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين . "هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين".

ومن شأن الأمي أن يعول على حافظته فيما بهمه أمره، ويعنيه استحضاره وجمعه. خصوصاً إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار، ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار. وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، وهي متمتعة بخصائص العروبة الكاملة، التي منها سرعة الحفظ، وسيلان الأذهان حتى كانت قلوبهم أناجيلهم وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم، وحوافظهم ودواوين أشعارهم ومناخرهم. ثم جاء القرآن الكريم فيهم بقوة بيانه، وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه، واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه، أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجه وشدة، وهو يعاني ما يعانيه من الوحي وسطوته. يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه مخافة أن تفوته كلمة، أو يفلت منه حرف. وما زال صلى الله عليه وسلم كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره. وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه فقال تعالى "لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه".

وأما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان كتاب الله تعالى في المحل الأول من عنايتهم يتنافسون في استظهاره وحفظه، ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه. وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: "كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا

يتغالطوا".

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. [مباحث في علوم القرآن-القطان]  
اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا للوحي، من أجله الصحابة رضي الله عنهم كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ويرشداهم إلى موضعها من سورتها، حتى تظاهر الكتابة في الطور الجمع في الصدور. كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، فيخطونه في العصب (جريد النخل) والأخشاب (وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه) وقطع الأديم، وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القرآن حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة.

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لديهم من القرآن حفظا وكتابة كذلك. ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعة في مصحف عام. بل عند هذا ما ليس عند ذلك، وقد نقل العلماء أن نفرا منهم : علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر أن زيد كان عرض متأخرا عن الجميع.

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن محفوظ في الصدور ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة في صحيفة على حدة بالأحرف السبعة الواردة، ولم يجمع في مصحف عام، حيث كان الوحي يتنزل تباعا فيحفظه القراء، ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد لأنه عليه السلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر، وقد يكون من الناسخ لشيء نزل من قبل. ولو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لآدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي. قال الزركشي: "وإنما لم يكتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مصحف لنلا يفرض إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن". وبهذا يفسر ما روى عن زيد بن ثابت قوله: "قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء".

فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضي الله عنهما.

ويسمى هذا الجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

أ- حفظا

ب- وكتابة الجمع الأول.

2- جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه:-

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وواجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب، فجهز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين ، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة 12 هـ تضم عددا كبيرا من الصحابة القراء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارنا من الصحابة، فحال ذلك عمر بن الخطاب، ودخل على أبي بكر وأشار عليه بجمع القرآن ، وكتابته خشية الضياع، فإن القبل قد استحر يوم اليمامة بالقراء، وبخشى أن يستحر بهم في المواطن الأخرى أن يضع القرآن وينسى، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم

وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل وقص عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة، فبدأ رضي الله عنه في مهمته الشاقة معتمدا على المحفوظ في صدور القراء، والمكتوب لدى الكتبة وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر، حتى إذا توفي سنة 13 هـ صارت بعده إلى عمر حتى مات - ثم كانت عند ابنته حفصة صدرا من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة. وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، وقوله في الحديث: "وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع غيره" لا ينافي هذا، ولا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيدا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معا، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم ويشهدون بأنها كتبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند خزيمة الأنصاري.

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثاني،

جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:-

اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرق القراء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، الأمر الذي يترتب عليه تسرب الشك للناشئة التي لم تدرك الرسول، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها، وذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه، ثم إلى اللجاج والتأنيث وتلك فتنة لابد لها من علاج. فلما كانت غزوة "أرمينية" وغزوة "أذربيجان" كان فيمن غزاها حذيفة بن اليمان فرأى اختلافا كثيرا في وجوه القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل لقراءته، ووقوفه عندها، ومما رأته مخالفة لغيره، وتغيير بعضهم الآخر، حينئذ فرع إلى عثمان رضي الله عنه فأخبره الخبر، وكان عثمان قد نما إليه شيء من ذلك الخلاف فأرسل عثمان إلى حفصة، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، عبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشي، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

فلم فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم.

وعن سويد بن غفلة قال: "قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن مأمنا. قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرا، قلنا: فما ترى قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون مرفقة ولا اختلاف، قلنا: نعم ما رأيت".

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة، كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة ليجتمع الناس على قراءة واحدة، ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وبعث إلى كل أئق بمصحف من المصاحف. واحتبس بالمدينة مصحف واحد هو مصحفه الذي يسمى الإمام .. وأمر أن يحرف ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف وتلفت الأمة ذلك بالطاعة، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى. ولا خير في ذلك، فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة، وإلا لوجب نقل كل حرف منها نقلا متواترا تقوم به الحجة. ولكنهم لم يفعلوا ذلك مثل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة.

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:-

يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية. والباعث لدى عثمان رضي الله عنه كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطاً بعضهم بعضاً. وجمع أبي بكر للقرآن كان نقلاً لما كان ممزقاً في الرقاع والأكتاف والعصب. وجمعا له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور. مقتصر على ما لم تنسخ تلاوته، مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. وجمع عثمان كان نسخاً له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد. وحرف واحد، وبهذا قطع عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحسن القرآن من أن ينطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور، وتعاقب الأزمان.

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث وكان سنة 25هـ.

شبه مردودة:-

هناك شبه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن، والتشكيك في دقة جمعه، نورد أهمها:-

- 1- قالوا: إن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم يكتب في المصاحف التي بأيدينا اليوم:-  
أ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: "سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ في المسجد فقال يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا" وفي رواية "أسقطهن من آية كذا وكذا" وفي رواية "كيف أنسيتهن".  
ويجاب عن هذا بأن نسيان الرسول صلى الله عليه وسلم، واستكثبها كتاب الوحي وحفظها الصحابة في صدورهم، وبلغ حفاظها مبلغ التواتر، فنسيان الرسول صلى الله عليه وسلم جائز ولا يضر نسيانها لها بعد أن بلغت ما بلغت من الحفظ والكتابة.
- 2- وقالوا أن في القرآن ما ليس منه، واستدلوا على ذلك بما روي من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن.  
ويجاب عن ذلك بأن ما نقل عن ابن مسعود لم يصح، وهو مخالف لإجماع الأمة وأجمع المسلمون على أن الفاتحة والمعوذتين من القرآن.

وعلى فرض صحته فالذي يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم فتوقف في أمرهما.  
3- يزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان وقد حرقوا القرآن، واسقطوا بعض آياته وسورة فحرقوا لفظ "أمة هي أزكى من أمة" والأصل هي "أمة هي أزكى من أمتكم". واسقطوا من سورة الأحزاب آيات فضائل أهل البيت وقد كانت في طولها مثل سورة الأنعام واسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن ويجب أن أقول ما يقال في هذا القول أنه حمق وسفاهة، وأباطيل لا سند لها، ودعاوى لا بينة عليها، ولقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السحق.  
والمقول عن علي رضي الله عنه الذي يتشيعون محمد أنه قال في جمع أبي بكر: "أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله".  
وقال: لو كنت الوالي لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان.  
فهذا القول نفسه يقطع السنة أولئك المتربصين الذين يزعمون نصرته وهو مهم براء.

### معرفة المكي والمدني

[مناهل العرفان في علوم القرآن]

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات:-

الأول: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة ضواحيها كبدر وأحد.

الثاني:- وهو المشهور أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة.  
الثالث:- أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، وعليه فيه بلفظ "يا أيها الذين آمنوا" فهو مدني، لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فخطبوا يا أيها الناس، وإن كان غيرهم داخلهم فيهم، ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة، فخطبوا بيا أيها الذين آمنوا وإن كان غيرهم داخلهم فيهم أيضاً.  
فائدة العلم بالمكي والمدني:-

من فوائد العلم بالمكي والمدني تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيات أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي.

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السmaschine الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

ومن فوائده الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل..... فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمسه ويعبث به، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والاحاطة بكل ما يتصل به.

الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني:-

لا سبيل إلى ذلك إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين، لأنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء في ذلك، وذلك لأن المسلمين في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ذلك لأنهم كانوا يشهدون الوحي والتنزيل، ومكانه وزمانه، وأسباب نزوله عياناً. "وليس بعد العيان بيان".

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت! ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله لتبلغه الإبل لركبته إليه".

الضوابط التي يعرف بها المكي والمدني:

عرفنا فيما مضى أن السبيل إلى معرفة المكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين، بيد أن هناك علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني.

ضوابط المكي:-

1- كل سورة فيها لفظ كلاً فهي مكية، وقد ذكر هذا اللفظ ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير. قال العماني: "وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم، بخلاف النصف الأول، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم.

2- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية



- 3- كل سورة في أولها حروف الهجا فهي مكية سور سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع
- 4 كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.
- 5- كل سورة فيها يا أيها الناس فهي مكية
- 6- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضا
- 7- كل سورة من المفصل على الأغلب فهي مكية. ذلك أن بعض سور المفصل مدني نزل بعد الهجرة اتفاقا كسورة النصر فهي من أواخر ما نزل بعد الهجرة. وعليه فإن قول ابن مسعود: "نزل المفصل بمكة مكثنا حججا نقرأه ولا ينزل غيره" الأولى أن يحمل على الكثرة الغالبة من سور المفصل لا على جميع سورة. والمفصل يبدأ من سورة الحجرات على الأصح، وسمي المفصل بذلك لكثرة الفصل بين سورة لقصرها، وقيل سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها.
- ضوابط المدني:-
- 1- كل سورة بها الحدود والفرائض فهي مدنية.
  - 2- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكامه فهي مدنية
  - 3- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت، والتحقيق أنها مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فهي مدنية، وهي التي ذكر فيها المنافقون.
- السور المكية والمدنية المختلف فيها:-
- المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وماعدا ذلك مكي باتفاق. أما السور المدنية العشرين فهي البقرة، آل عمران، النساء، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقين، الطلاق، التحريم، النصر.
- أما السور التي اثنتي عشرة المختلف فيها فهي:- الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، التطهيف، القدر، لم يكن، إذا زلزلت، الإخلاص، المعوذتين.
- أما السور المكية باتفاق فهي ماعدا ذلك وحى اثنتان وثمانون سورة.
- أنواع السور المكية والمدنية:
- أربعة أنواع:- النوع الأول قد تكون السورة كلها مكية مثل سورة المدثر.
- النوع الثاني: قد تكون كلها مدنية مثل سورة آل عمران. الثالث: قد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها مثل سورة الأعراف فإنها مكية ماعدا آية "واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر" الرابع: سورة الحج فإنها مدنية ماعدا أربع آيات منها تبتدئ بقوله سبحانه: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى" إلى قوله: "عذاب يوم عقيم". وهذا النوع الرابع التي قد تكون السورة مدنية ما عدا آيات منها.
- وجوه تتعلق بالمكي والمدني :-
- من هذه الوجوه :- ما يشبه تنزيل المدني في السورة المكية في قوله تعالى في سورة النجم
- "الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم" قال السيوطي: فان الفواحش كل ذنب فيه حد والكبائر كل ذنب عاقبته النار واللمم ما بين الحدين من الذنوب
- ولم يكن بمكة حد ولا نحوه. لكن فيه نظر من وجهين: (أحدهما) أن يفسر الفواحش بما ذكر
- غير متفق عليه، بل فسر بها غير بأنها الكبائر مطلقا. وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بحد
- وفسرها السيوطي نفسه في سورة الأنعام بأنها الكبائر (والثاني) أن بعضهم يستثنى هذه الآية من سورة النجم المكية ونص على أنها مدنية
- 2- ما يشبه تنزيل المكي في السور المدنية نحو سورة والعاديات ضحبا ونحو قوله تعالى: "وان قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك.." وفيه نظر أيضا فإن سورة والعاديات مكية كما مر معنا، وإن آية "وإذ قالوا اللهم" منصوص على أنها نزلت بمكة، كما نقل السيوطي نفسه عن مقاتل، وقال أنها مستثناة من سورة الأنفال المدنية. بل نص بعضهم على أن هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلها مكيات مستثنيات من سورة الأنفال المدنية.
- 3- ما حمل من مكة إلى المدنية نحو سورة يوسف والإخلاص وسبح.
- 4- ما حمل من المدنية إلى مكة نحو آية الربا في سورة البقرة المدنية وصدر سورة التوبة المدنية.
- 5- ما حمل إلى الحبشة نحو سورة مريم فقد صح أن جعفر ابن أبي طالب قرأها على النجاشي.
- 6- ما حمل إلى الروم كقوله سبحانه في سورة آل عمران: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء..".
- فروق أخرى بين المكي والمدني
- أولا من خواص القسم المكي أنه كثر فيه ما يأتي:-
- 1- حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحدة، وضرب لهم بلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أذى الذباب.
- قال تعالى: "يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوا منه ضعف الطالب والمطلوب".
- ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آبائهم نعى عليهم أن يمتنعوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الزلة للأحجار والأصنام، وسنة أخلامهم وأحلام آبائهم فقال تعالى: "أو لو كان آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يعتدون".
- 2- فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، ثم قادهم من بعد ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته والإيمان بالبعث والوحي.
- 3- تحدث عن عاداتهم القبيحة، كالقتل وسفك الدماء، وواد البنات واكل مال اليتيم وما زال بهم حتى طهرهم منها.
- 4- شرح لهم أصول الأخلاق، وحقوق الاجتماع، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وحبب إليهم الإيمان والطاعة والعلم والرحمة وطهارة القلوب وإكرام الجار ونظافة الألسنة.
- 5- قص عليهم أنباء الرسل والأمم السابقة، ما فيه بلغ المواعظ وانفع العبر، ومن تقرير سننه الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان، وانتصار أهل الإيمان والإحسان.
- 6- سلك مع أهل مكة الإيجاز في خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات، لأنهم كانوا أهل فصاحة وبيان.
- خواص القسم المدني:-

- 1- التحدث عن دقائق التشريع، وتفصيل الأحكام وأنواع القوانين المدنية والجناحية والحربية، والحقوق الشخصية، وسائر ضروب العبادات وان شئت فانظر في البقرة والنساء والمائدة ...
- 2- دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان جنايتهم على الحق، ومحاکمتهم إلى العقل والتاريخ.
- 3- سلك سبيل الإطناب والتطويل وذلك لأن أهل المدينة ليسوا كأهل مكة في الذكاء والألمعية وطول الباع في الفصاحة والبيان، فناسبهم الشرح والإيضاح وذلك ينتبع كثير من البسط والإسهاب، لأن دستور البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال وخطاب الأغبياء غير خطاب الأذكياء.

### أسباب النزول

[مناهل العرفان في مباحث في علوم القرآن / القطان]

القرآن الكريم قسمان: قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وهو كثير لا يحتاج إلى بحث ولا بيان، وقسم نزل مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وهو موضوع بحثنا الآن.

معنى سبب النزول: سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمة أيام وقوعه والمعنى أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن بشأنها كذلك الحادثة المتعلقة بالخلاف الذي نشأ بين جماعة من الأوس وأخرى من الخزرج بسبب من أعداء الله اليهود حتى تتداول السلاح السلاح، فنزل قوله تعالى في سورة آل عمران "يا أيها الذين آمنوا إن ططيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين".

أو يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه كالذي كان من خولة بنت ثعلبة لما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فجاءت تشتكي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قول الله تعالى: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها والله يسمع تحاوركما".

تعريف سبب النزول:-

بناء على ما تقدم فإن سبب النزول يعرف بأنه:- هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

فوائد تعرف من أسباب النزول:-

- 1- معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن فالمؤمن يزداد إيماناً، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله تعالى والعمل بكتابه، أما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفاً حين يعلم أن هذا التشريع قائم على رعاية مصالح الإنسان لا على التحكم والطغيان، وحسب في ذلك التدرج في تحريم الخمر شاهداً على ذلك.
- 2- الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها مثال ذلك قوله تعالى في سورة البقرة "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم". فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان إن يصلي إلى أية جهة شاء. ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام لكن إذا علم أن هذه الآية نازله في نافلة السفر خاصة. أو فيمن صلي باجتهاده ثم بان له خطؤه تبين له أن الظاهر غير المراد. إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة. أو على المجتهد في القبلة إذا صلي وتبين له خطؤه

3- رفع توهم الحصر، عما يفيد بظاهرة الحصر نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام: "قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم بطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير، فإنه رجس، أو فسقاً أهل لغير الله به". ذهب الشافعي إلى أن الحصر في الآية غير مقصود، واستعان على رفع توهمه بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرّموا ما أحل الله ويحلوا ما حرّم الله عناداً منهم ومحاددة لله ورسوله، فنزلت الآية بهذا الحصر ساء لهم أو محادة من الله ورسوله، لا قاصداً إلى حقيقة الحصر.

4- معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين، حتى لا يشتبه بغيره فتبهم الرأي، ويبرأ المريب ولهذا ردت عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبدالرحمن بأنه الذي نزلت في آية "والذي قال لوالديه أف لكما". وقالت "والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته".

5- تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي، في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها.

طريق معرفة سبب النزول:-

الطريق الواحد الوحيد في معرفة أسباب النزول هو الرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها، وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابي فهو مقبول، ذلك لأن قول الصحابي حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل فإنه لا يقبل إلا إذا صح وعضد بمرسل آخر وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخرين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبیر.

التعبير عن سبب النزول، أو تعدد الأسباب والنازل واحد.

قد تعددت الروايات، في سبب نزول آية واحدة، وفي مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي:-

إذا لم تكن الصيغة الواردة صريحة مثل: "نزلت هذه الآية في كذا" أو "أحسبها نزلت في كذا" فلا منافاة بينها، إذا المراد التفسير، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية.

إذا كانت أصل الصيغة غير صريحة، وصرح آخر بذكر سبب مخالف فالمعتمد ما هو نص في السببية، تحمل الأخرى على دخولها في أحكام الآية.

مثال ذلك عن نافع قال: قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم) فقال ابن عمر: أتدري فيما أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إيفان النساء في أدبارهن" فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية، وقد جاء التصريح بذكر سبب بخالفه، عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول فنزلت (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فجابر هو المعتمد لأن كلام نقل صريح، وهو نص في السبب، أما كلام ابن عمر فليس بنص يتحمل على أنه استنباط وتفسير.

3- إذا تعددت الروايات وكانت جميعها نصاً في السببية، وكان إسناد أحدها صحيحاً دون غيره فالمعتمد الرواية الصحيحة، مثل: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب الجلي قال: اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله "والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى".



وأخرج الطبراني أن سبب إبطاء الوحي هو دخول جرو وموته تحت سرير النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخرج نزول الوحي. قال ابن حجر عن هذه القصة أنها مستورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيحين.

4- إذا تساوت الروايات في الصحة، ووجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلا أو كون إحداها أصح قدمت الرواية الراجحة مثال ذلك ما أخرجه النهاري عن ابن مسعود قال: "كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا). وقد أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: "قالت قريش لليهود: أعطونا شيء نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: أسأله عن الروح، فسأله فأنزل الله تعالى "يسألونك عن الروح".

نحن خلال هاتين الروايتين نرجح الأولى لحضور ابن مسعود القصة، ثم لما عليه الأمة من تلقى صحيح البخاري بالقبول، وترجيحه على ما صح في غيره.

5- إذا تساوت الروايات في الترجيح جمع بينها إن أمكن، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين، أو الأسباب لتقارب الزمن بينها، كآيات اللعان "والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم" فقد أخرج البخاري والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت في هلال ابن أمية، قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سماعة فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة أو حد في ظهرك... القصة.

وأخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: "جاء عويمر إلى عاصم بن عدى، فقال: سل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل وجد مع امرأته رجلا أيقنله فيقتل به أم كيف يصنع؟" فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولا وصادف مجيء عويمر كذلك فنزلت في شأنهما معا بعد حادثتهما. قال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب.

6- أن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يحمل على تعدد النزول وتكرره ومثاله: ما أخرجه الشيخان عن السبب قال: "لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: أي عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله يوم القيامة. فقال أبو جهل وعبد الله يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل يقول لا إله إلا الله حتى قال هو على ملة عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لك ما لم أنه عنه، فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين). وأخرج الترمذي عن علي قال: "سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت.

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر فجلس إلى قبر منها فناجاه ثم بكى طويلا.. فقال إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وأبى استأذنت ربي في الدعاء فلم يأذن لي، فأنزل على "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...". فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول.

تعدد النزول مع وحدة السبب:-

قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد، ولا شيء في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى. ومثاله ما أخرجه سعيد ابن منصور وغيره عن أم سلمة قالت: "يا رسول الله لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله "فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض".

وعنها قالت: تغزوا الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن.. وأنزل "إن المسلمين والمسلمات..". فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد.

عموم اللفظ وخصوص السبب:-

ومعناه أن يأتي الجواب أغنم من السبب، ويكون السبب أخص من لفظ الجواب بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه: أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب؟ فقد ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ واستشهدوا بحادثة هلال بن أمية لما قذف زوجته، فالقاذف هو هلال لكن الآية جاءت بلفظ العموم وهو لفظ "الذين يرمون أزواجهم". فحكم القذف هنا يشمل هلال وغيره بنص الآية ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النص.

وقال غير الجمهور: إن العبرة بخصوص السبب، ومعنى هذا أ، لفظ الآية يكون مقصورا على الحادثة التي هو نزل لأجلها، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية إنما يعلم بدليل آخر مستأنف، هو القياس إذا استوفى شروطه أو قوله صلى الله عليه وسلم "حكمي على الواحد حكمي على الجماعة"

ورأي الجمهور هو الرأي الراجح والأصح، هو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها

تقدم نزول الآية على الحكم:-

يذكر الزركشي نوعا يتصل بأسباب النزول يسميه تقدم نزول الآية على الحكم. جاء في البرهان قوله: "واعلم أنه قد يكون النزول سابقا على الحكم، وهذا كقوله تعالى: "قد أفح من تزكى". فإنه يستدل بها على زكاة الفطر. روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان، ثم أسند مرفوعا نحوه، وقال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل، لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة"

وأجاب البغوي في تفسيره بأنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم كما قال: (لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد) فالسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال عليه السلام: "أحلت لي ساعة من نهار". وكذلك نزل بمكة "سيهزم الجمع ويولون الدبر" قال عمر كنت لا أدري: أي الجمع سيهزم؟ فأني كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر".

بقى موضوع تعدد ما نزل في شخص واحد يراجع من مباحث في علوم القرآن ص 94 مناع القطان

## ترتيب الآيات والسور

الآية: معناها:

لغة: آيات القرآن جمع آية، والآية لها عدة معان هي:-

- 1- المعجزة ؛ قال تعالى: "سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة" أي معجزة واضحة
  - 2- العلامة: قال تعالى: "إن آية ملكه أ، يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم" أي علامة ملكه
  - 3- العبرة: قال تعالى: "إن في ذلك لآية" أي عبرة لمن يعتبر.
  - 4- الأمر العجب: قال تعالى: "وجعلنا ابن مريم وأمه آية"
  - 5- الجماعة: ومنه خرج القوم بأيّتهم أي بجماعتهم، والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئا.
  - 6- البرهان والدليل: قال تعالى: "ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم". والمعنى أن من براهين الله واقتداره واتصافه بالكمال، خلق عوالم السموات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان.
- اصطلاحاً:- طائفة ذات مطلع، ومقطع مندرجة في سور القرآن.
- فوائد معرفة الآيات:-
- يزعم بعض الناس أنه لا فائدة من معرفة آياتها القرآن، وللدرد عليهم نذكر لهذه المعرفة ثلاثة فوائد.
- 1- العلم بأن كل ثلاث آيات قصار، معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار.
  - ووجه ذلك أن الله تعالى أعلق التهدي بالسورة الواحدة، فقال تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله". والسورة تطلق على أقصر سورة كما تطلق على أطول سورة من سور القرآن الكريم. وأقصر سورة في القرآن الكريم هي سورة الكوثر وهي ثلاثة آيات قصار، فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافؤها.
  - 2- حسن الوقوف على رؤوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة بناء على ظاهر الحديث، الذي استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف. الحمد لله رب العالمين ثم يقف الرحمن الرحيم ثم يقف.
  - 3- اعتبار الآيات في الصلاة والخطبة: قال السيوطي ما نصه: "يترتب على معرفة الآي وعددها، وفواصلها أحكام فقهية، منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات، ومنها اعتبارها في الخطبة فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة، وكذلك على ما حققه الجمهور.
- ترتيب آيات القرآن الكريم:
- انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم في المصاحف كان توقيفاً وليس توفيقاً، فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها. ثم يقرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها جميعاً لهم السورة التي تكون فيها الآية. وموضع الآية من هذه السورة، وكان يتلوها عليهم مراراً وتكراراً في صلاته وعظاته وفي حكمه وأحكامه.
- وكان يعرض به جبريل عليه السلام كل عام مرة، وعارضه به في العام الأخير مرتين، وكل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف، وكذلك كان كل من حفظ من القرآن شيء منه من الصحابة، حفظه مرتب الآيات على هذا النمط، وشاع ذلك وذاع ولم يكن لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يد ولا تصرف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم، وانعقد الإجماع على ذلك، وحكى الإجماع جماعة منهم الزركشي، وأبو جعفر ك المناسبات إذ يقول: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين".
- دليل هذا الإجماع:- استند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها:
- ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: "أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من السورة" إن الله يأمر بالعدل والإحسان.... ما ثبت في السنة الصحيحة من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ويسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء، ومن قراءته لسورة الأعراف في صلاة المغرب، وسورة "قد أفلح المؤمنون" وسورة الروم في صلاة الصبح وقرأ سورة السجدة وسورة "هل أتى على الإنسان في صبيحة يوم الجمعة.
- ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان: "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً" نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، والمعنى لماذا تكتبها أو قال لماذا تتركها مكتوبة؟ مع أنها منسوخة. قال يا ابن أخي لا أغير شيء من مكانه.
- ترتيب السور:- السورة معناها:-
- لغة: المَنزلة ومن القرآن معروفة لأنها منزلة بعد منزلة، مقطوعة عن الأخرى.
- اصطلاحاً: طائفة مستقلة من الآيات ذات مطلع ومقطع.
- حكمة تسوير السور:-
- لتجزئة القرآن إلى سور فوائد وحكم:-
- التيسير على الناس، وتشويقهم إلى مدارس القرآن وحفظه، لأن لو كان سبيكة واحدة لا حلقات لصعب عليهم حفظه وفهمه، وأعيانهم أن يخوضوا عباب هذا البحر الخضم الذي لا يشاهدون فيه عن كسب مرافقه ولا شواطئه.
- الدلالة على موضوع الحديث، ومحور الكلام، فإن في كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطاً في إعجازها، بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر.
- 4- أن القارئ إذا أتم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو آخر الكتاب على طوله.
  - 5- أن الحافظ إذا حفظ السورة، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنه ما حفظه،
  - 6- إن التفصيل بحسب تلاحق الأشكال والنظائر، وملائمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحق المعاني والنظم إلى غير ذلك من الفوائد.
- الاختلاف في ترتيب السور:-
- اختلف العلماء في ترتيب السور على ثلاثة أقوال:-
- الأول: قيل إنه توقيفي على النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر به جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل، فكان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتب السور، كما كان مرتب الآيات. على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم، وهو ترتيب مصحف عثمان الذي لم ينازع فيه أحد من الصحابة مما يدل على الإجماع وعدم المخالفة.

- الثاني: قيل إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم ك الترتيب، فمصحف على كان مرتبا على النزول أوله إقرأ ثم المدثر، ثم ن والقلم، ثم المزمّل إلى آخر المكي والمدني. وكان أول مصحف ابن مسعود البقرة ثم النساء ثم آل عمران. الثالث: قيل إن بعض السور ترتيبه توقيفي، وبعضها باجتهاد الصحابة حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة.

فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصل صلى الله عليه وسلم . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران". وروي أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ "قل هو الله أحد، والمعوذتين". قال ابن حجر: ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفا. الترجيح: الرأي الثاني لم يسند إلى دليل، لأن ترتيب الصحابة كمصاحفهم كان اجتهاد واختيار منهم. وبالنسبة إلى سورتى الأنفال والتوبة في إسناد الحديث (يزيد الفارس ضفة البخاري، الرأي الثالث يرتكز في أدلته على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفي. والاجتهاد لا دليل عليه. وبهذا يترجح الرأي الأول القائل: بأن ترتيب السور توقيفي كما هو ترتيب الآيات. سور القرآن الكريم وآياته

سور القرآن الكريم أقسام أربعة:

- 1- الطوال: وعددها سبع، البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف. فهذه ست أما السابعة فقليل هي الأنفال وبراءة معا لعدم الفصل بينها بالبسملة وقيل هي يونس.
- 2- المنيّة: هي التي تزيد آياتها على مائة أو تقارب.
- 3- المثاني: هي التي تلي المنيّة في عدد الآيات، سميت بذلك لأنها تشفى في القراءة وتكرر أكثر من الطوال والمنيّة.
- 4- المفصل: قيل: من أول سورة (ق) وقيل: من أول (الحجرات) وقيل غير ذلك.

أقسام المفصل ثلاث:

- 1- طوال: من (ق) أو الحجرات إلى عم أو البروج.
- 2- أوساطه: من (عم أو البروج) إلى الضحى أو لم يكن.
- 3- قصاره: من الضحى أو لم يكن إلى آخر القرآن ، على خلاف في ذلك وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سورة بالبسملة.

تعداد السور والآيات:

تعداد السور مائة وأربع عشرة سورة (114) وقيل (113) على اعتبار الأنفال والتوبة سورة واحدة. تعداد الآيات ستة آلاف ومائتا آية (6200) واختلفوا فيما زاد على ذلك . وأطول سورة البقرة، وأطول الآيات آية الدين.

أول ما نزل من القرآن الكريم وآخر ما نزل منه. مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض. فوائد الإمام بأول ما نزل وآخر ما نزل: 1- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغير الحكم في الأخرى. 2- معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، ومراتب سيرة التدريجي والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام، وسياسته في أخذ الناس بالهودة والرفق. 3- إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل كما عرف مكية ومدنية وسفريّة وحضرية إلى غير ذلك . ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به، ودليل سلامته من التغيير والتبديل. قال تعالى: "لا تبدّل لكلمات الله". أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:- جاء في ذلك أربعة أقوال للعلماء:-

القول الأول وهو أصحها: أنه صدر سورة "اقرأ باسم ربك الذي خلق". ودليله، ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبيب إليه الخلا، فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال اقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: ما أنا بقاري، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت: ما أنا بقاري، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت: ما أنا بقاري، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق ) حتى بلغ (ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتجف بواذره". القول الثاني: إن أول ما نزل إطلاقا "يا أيها المدثر"، ودليله ما رواه الشيخان عن أبي سلمة عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أنزل قبل؟ قال: "يا أيها المدثر، قلت أو اقرأ باسم ربك؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اني جاورتها بحراء فلما قضيت جوارى، نزلت فاستبطنت الوادي ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالى ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعنى جبريل، فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدنروني فأنزل الله "يا أيها المدثر قم فأنذر".

وأجيب عن حديث جابر أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل تمام نزول سورة إقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما جاء في الصحيحين أيضا عن أبي سلمة جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت فقلت رملوني فدثروني فأنزل الله "يا أيها المدثر".

فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء - أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي. وقد استخرج جابر هذا باجتهاده، فتقدم عليه. برواية عائشة ويكون أول ما نزل بعد فترة الوحي "يا أيها المدثر" أو أول ما نزل للرسالة "يا أيها المدثر" وللنبوة "اقرأ".

القول الثالث: - أول ما نزل هو سورة الفاتحة، ودليله ما رواه البيهقي في الدلائل بسنده عن ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: "إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد خشيت والله على نفسي أن يكون هذا أمراً". قالت معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصا عليه والقصة فقال: "إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هاربا في الأفق". فقال: لا تفعل إذا أتاك فأتيت حتى تسمع ما يقول ثم انتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد قل: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ... حتى بلغ ولا الضالين".

ورد على هذا الحديث أنه غير صالح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقاً، وذلك من وجهين:- أحدهما: أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في فجر النبوة، أول عهده بالوحي الجلي وهو في غار حراء. بل يفهم منه أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد.

الثاني:- أن هذا الحديث مرسل سقط من سنده الصحابي، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق [الوارد في القول الأول].

القول الرابع: أول ما نزل هو "بسم الله الرحمن الرحيم". ودليله ما أخرجه الواحدي سنده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم وأول سورة اقرأ. ورد هذا الاستدلال من ناحيتين أيضاً: أحدهما:- أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع.

الثاني:- أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدرا لكل سورة إلا ما استثنى. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ، فلما يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق:-

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هذا من دواعي الاشتباه وكثرة الخلاف على أقوال شتى:-

الأول: قيل إن آخر ما نزل آية الربا: لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: "آخر آية نزلت آية الربا". وهي قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين" البقرة 278.

الثاني:- قيل آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: "واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون". البقرة 281.

الثالث:- قيل آخر ما نزل آية الدين لما روى عن سعيد بن المسيب: "أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرسن آية الدين". وهي قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه" إلى قوله تعالى: "والله بكل شيء عليم".

البقرة 282.

ويمكن الجمع بين هذا الأدلة أو الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف آية الربا، فآية "واتقوا يوماً" فآية الدين لأنها في قصة واحدة.

وبهذا يزول التنافي بين هذه الروايات الثلاث. ولكن الذي تستريح إليه النفس أن آخر هذه الثلاثة نزولاً هو قوله تعالى: "واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله..." وذلك من وجهين:-

الأول: ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي بسبب ما تحت عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوّه به من الرجوع إلى الله.

ثانيهما:- التنصيص في رواية ابن أبي حاتم على أن النبي صلى الله عليه وسلم عاسن بعد نزولها تسع ليالي فقط، ولم تظهر الآيات الأخرى بنص مثله.

الرابع:- قيل آخر ما نزل آية الكلاله فقد روي الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت "يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله" 176 النساء.

وحملت الآية هنا أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث.

الخامس: قيل إن آخر ما نزل قوله تعالى: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم" إلى آخر السورة ففي المستدرك عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت "لقد جاءكم رسول من أنفسكم" 128 - 129 البقرة.

وحمل هذا على أنها آخر آية نزلت من سورة براءة.

السادس: قيل آخر ما نزل قوله تعالى: "فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم" آل عمران 195 لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: "آخر آية نزلت: "آخر آية نزلت هذه الآية" فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم..." وذلك أنها قالت يا رسول الله: أرى الله يذكر الرجال، ولا يذكر النساء فنزلت "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض". ونزلت "إن المسلمين والمسلمات" ونزلت هذه الآية فهي آخر الثلاثة نزولاً وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذكر فيه النساء.

السابع: قيل آخر ما نزل سورة المائدة، لما رواه الترمذي والحاكم في ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وأجيب أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام، فلم تنسخ فيها الأحكام.

الثامن: قيل آخر ما نزل آية "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً". النساء 93.

لما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال: هذه الآية "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم". هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء. والتعبير بقوله وما نسخها شيء يدل على أنها آخر آية نزلت في حكم قتل المؤمن عمداً.

التاسع: عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت "إذا جاء نصر الله والفتح".

العاشر: آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف. "فمن كان يرجو لقاء ربه..." لما أخرجه ابن جرير عن معاوية ابن أبي سفيان. قال ابن كثير: هذا أثر شغل، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها، ولا تغير حكمها بل هي مثبتة محكمة وهو يفيد أنها آخر مقيد لا مطلق.

هذا الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكل قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل في تشريع خاص أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذي خرجنا به كل قول منها.

أما قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً" فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام، لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين في هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البيت الحرام وإجلاء المشركين عنه، وحجهم وحدهم دون أن يشاركونهم فيه أحد من المشركين بعد أن كانوا يحجون معهم من قبل. وذلك من تمام النعمة "وأتممت عليكم نعمتي".

وأن آية "وانتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله" كانت آخر آية نزلت على الإطلاق، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعدها تسع ليال فقط، وتلك قريته تمنعنا من أن نفهم أن إكمال نزول القرآن من إكمال الدين في آية المائدة. أوائل موضوعية:- أو أمثلة أول ما نزل وآخر ما نزل في موضوعات مخصوصة.

أول ما نزل في الأطعمة:-

أول آية نزلت بمكة آية الأنعام، قوله تعالى: "قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم" الانعام 145.

ثم آية النحل في قوله تعالى: "فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أكل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم". 114 - 115 النحل. ثم آية البقرة في قوله تعالى: "إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أكل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتروية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم ينس الذين كفروا من دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخصصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم" المائدة 3.

أول ما نزل في الأشربة:-

أول آية نزلت في الخمر آية البقرة في قوله تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما". البقرة 129

ثم آية النساء في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون" النساء 43. ثم آية المائدة في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر وصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" المائدة 90 - 91.

وعن عبد الله بن عمر قال: "نزل في الخمر ثلاث آيات: فأول شيء "يسألونك عن الخمر والميسر". فقيل حرمت الخمر فقالوا يا رسول الله: دعنا ننتفع بها كما قال الله فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية. "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" فقيل حرمت الخمر، فقالوا يا رسول الله ألا نشربها قرب الصلاة. فسكت عنهم. ثم نزلت "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت الخمر".

أول ما نزل في القتال:-

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول آية نزلت في القتال قوله تعالى: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" الحج 39.

بسم الله الرحمن الرحيم

## الباب الثاني

# في تفسير القرآن الكريم

## التفسير

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين ، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان آية 33 "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً" أي بياناً وتفضيلاً، وهو مأخوذ من الفسر ، وهو الإبانة والكشف.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: "..ويطلق التفسير أيضا على التعرية للانطلاق تقول فسرت الغرس عريق ينطلق، وهو تراجع لمعنى الكشف". ومن هنا تبين أن التفسير في اللغة يستعمل في الكشف الحسي، وفي الكشف عن المعاني أيضا واستعماله في الثاني أكثر منه في الأول.

في الاصطلاح:- اختلف العلماء في كون التفسير له معنى. فالقائلين بأن ليس له معنى في الاصطلاح على اعتبار أن التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حد، لأنه ليست قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكتفي في إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها. أما القائلين بأن له معنى فعلى اعتبار أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد فيتكلف له التعريف.

وإذا تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرفوه بتعاريف كثيرة يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها.

فقد عرفه أبو حيان في البحر المحيط فقال:- " هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الاقرارية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمن لذلك".

والتأويل في اللغة:- مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال في القاموس : " آل إليه أولا ومآلا : رجع وعنه ارتد"، والتأويل يأتي بمعنى التفسير .. قال في القاموس: "وأول الكلام تأويلاً وتأوله: دبّره وقدرة وفسره"، ولذلك أجراه السلف بمعنى التفسير.



وفى الاصطلاح فله عند السلف معنيان:- الأول: تفسير الكلام ويباعد معناه سواء أوافق ظاهره ، أو خافه فيكون التفسير والتأويل بمعنى واحد .

ثانيها:- هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً، كان تأويله نفس الشيء المخبر به. وهذا هو محل الخلاف بين السلف والخلف وخاصة في آيات الصفات " يد الله فوق أيديهم " ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام". " وجاء ربك والملك صفاً صفاً " الرحمن على العرش استوى". فالسلف أجروها على ما هي عليه، ولم يسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم قرأوا الآية التي نزهت الله عن خلقه في قوله تعالى "ليس كمثله شيء"

أما المتأخرين من المتفهمة والمتكلمة والمحدثّة :- فالتأويل عندهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتزن به . ولذلك نجدهم يؤولون آيات الصفات فمثلاً "جاء ربك" يعنى "جاء أمر ربك" و"يد الله أولوها بقدره الله".

الفرق بين التفسير والتأويل:- {مباحث في علوم القرآن - القطان - ص 32} اختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل - وعلى ضوء ما سبق في معنى التفسير والتأويل نستطيع أن نستخلص أهم الآراء فيما يأتي:-

1- إذا قلنا : إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان، ومنه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل".

2- وإذا قلنا إن التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، وتأويل الخبر نفس الشيء المخبر به، فعلى هذا يكون الفرق كبيراً بين التفسير والتأويل، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام، ويكون وجوده في الذهن بتعلق، وفى اللسان بالعبرة الدالة عليه، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج، فإذا قيل طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا هو الغالب في لغة القرآن، قال تعالى : "أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله". يوسف 38 - 39. فالمراد بالتأويل وقوع المخبر به.

3- وقيل : التفسير: ما وقع مبيناً في كتاب الله أو معيناً في صحيح السنة، لأن معناه قد ظهر ووضح، والتأويل ما استنطق العلماء، ولذا قال بعضهم: "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية".

وقيل: التفسير أكثر ما يستعمل في الألفاظ ومفرداتها، والتأويل أكثر ما يستعمل في المعاني والجمال.

## نشأة التفسير

متى نشأ علم التفسير، ومتى بدأ التدوين؟

نشأ علم التفسير مع نزول القرآن الكريم، لأن الله سبحانه وتعالى حينما أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم إنما أرسله بلسان قومه، فقد كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، وهذه هي سنة الله في خلقه. قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم".

وعندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم، كانوا يفهمونه، وإذا أشكل عليهم شيء رجعوا إليه، مثال ذلك: قصة عدى بن حاتم رضي الله عنه عندما أشكل عليه فهم قوله تعالى: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود الفجر". القصة. وتفسيره صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" حيث فسر القوة بالرمي.

التفسير في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه:

التفسير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قليل جداً بقدر حاجة الناس إليه. والناس الذين خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهدوا نزول الوحي ووقت نزوله والمناسبة التي نزل بها، مما جعلهم لا يحتاجون إلى بيان كثير، وفي معظمه كان في القصص القرآني، حيث أن قصة القرآن لا تحتاج إلى كثير بيان، فمن رزقه الله تعالى ذخيرة لغوية، وفطرة سليمة فانه لا يحتاج إلى بيان كثير في القصص القرآني والأمور النقدية بل يحتاج إلى بيان الأحكام كقوله تعالى: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم". فهذه الآية تحتاج إلى بيان لأن الظلم كلمة عامة.. قال ابن مسعود لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله: و أينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: "إن الشرك لظلم عظيم". إنما هو الشرك.

وأخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابي يتخاصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها". ولذا قال ابن قتبية: "إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك عن بعض"

وكان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على:-

أولاً، القرآن الكريم

فما جاء مجملاً في موضع جاء مبيناً في موضع آخر، تأتي الآية مطلقة أو عامة، ثم ينزل ما يقيدتها أو يخصصها، وهذا هو الذي يسمى بتفسير القرآن بالقرآن، ولهذا أمثلة كثيرة فمثلاً قوله تعالى: "أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم" فسرته قوله تعالى: "حرمت عليكم الميتة..".

وآية "لا تدركه الأبصار" فسرته آية "إلى ربها ناظرة".

ثانياً: النبي صلى الله عليه وسلم: فهو المبين للقرآن، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات وقد رجعنا قوله تعالى "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" وكيف فسر الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم ما يشاء عند الحاجة. عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة". "ألا وإن القوة الرمي".

ومن القرآن ما لا يُعلم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم . كتفصيل وجود أمره ونهيه، ومقادير ما فرضه الله من أحكام، وهذا البيان هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم "ألا إنني أوتيت القرآن ومثله معه".

ثالثاً : الفهم والاجتهاد:-

مكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهدوا في الفهم، فإنهم من خُصَّ العرب، يعرفون العربية، ويحسنون فهمها، ويعرفون وجود البلاغة فيها.

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة : منهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وجبير بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعائشة وآخرين غيرهم، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة.

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته، وذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا كان مما ليس للرأي فيه مجال، أما إن كان للرأي فيه مجال فإنه يبقى موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والموقوف على الصحابي من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ به لأنهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم الصحيح. ولم يدون شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني، وكان التفسير فرعاً من الحديث، ولم يتخذ شكلاً منظماً بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة. من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسروه، كما لو تشمل القرآن كله.

## التفسير في عصر التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير ، اشتهر به أيضاً بعض أعلام التابعين، معتمدين في مصادره على المصادر التي جاءت في العصر السابق، بالإضافة إلى ما كان لهم من

اجتهاد ونظر، ذلك أنه لما اتسعت الفتوحات الإسلامية، انتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة، ولدى كل واحد منهم علم، وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم، وأخذوا عنهم، ونشأت مدارس متعددة.

ففي مكة نشأت مدرسة ابن عباس ، واشتهر من تلاميذه بمكة: سعيد بن جبير ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح. وفي المدينة اشتهر أبي بن كعب، واشتهر من تلاميذه التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي. وفي العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التي يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأي واشتهر بالتفسير من أهل العراق علقمة بن قيس ، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري.

اختلف العلماء فيما أثر عن التابعين من تفسير مما لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أيؤخذ بأقوالهم أم لا؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم لأنهم تلقوه غالباً عن الصحابة. والراجح أنه إذا اجمع التابعون على رأي وجب الأخذ به لا نتعدها إلى غيره.

وقد ظل التفسير محتفظاً في هذا العصر بطابع التلقي والرواية ، لكن التابعين بعد أن كثر دخول أهل الكتاب في الإسلام، نقلوا عنهم في التفسير كثير من الإسرائيليات كالذي يروى عن عبد الله بن سلام، كعب الأحبار ، ووهب بن منبه، وابن جريج كما بدأ الاختلاف فيما يروى عنهم من تفسير لكثرة أقوالهم. ومع هذا فإنها أقوال متقاربة أو مترادفة، فهو من اختلاف العبارة لا اختلاف التباين والتضاد.

## التفسير في عصور التدوين

بدأ التدوين في أواخر عهد بني أمية ، وأوائل عهد العباسيين، وحظر الحديث بالنصيب الأول في ذلك، حيث شمل تدوين الحديث أبواباً متنوعة ، وكان التفسير باب من هذه الأبواب ، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية من مبتدئه إلى منتهاه.

واشتدت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى الصحابة أو إلى التابعين، ومن هؤلاء يزيد بن هارون الساعي المتوفى سنة 117هـ، وشعبة بن الحجاج، وسفيان ابن عيينة، وآدم بن أبي إياس وغيرهم.

ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شيء وإنما روى ما نقل مسنداً إليه م في كتب التفسير بالمأثور.

جاء بعد هؤلاء من أفرد التفسير بالتأليف وجعله علماً قائماً بنفسه منفصلاً عن الحديث ففسر القرآن حسب ترتيب المصحف كابن ماجه وابن جرير الطبري والنيساوري وابن أبي حاتم. وتفسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعين وأتباع التابعين مع الترجيح أحياناً فيما يروى من آراء واستنباط بعض الأحكام والأعرار عند الحاجة كما فعل ابن جرير الطبري ثم جاء على اثر هؤلاء جماعة من المفسرين لم يتجاوزوا حدود التفسير بالمأثور، ولكنهم اختصروا الأسانيد، وجمعوا شتات الأقوال دون أن ينسبوا إلى قائلها فالتبس الأمر ولم يتميز الصحيح من السقيم.

اتسعت العلوم، وتم تدوينها، وتشعبت فروعها، وكثر الاختلاف وأثيرت مسائل الكلام وظهر التعصب المذهبي واختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية، وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التغير شيء من هذا الغبار، وأصبح المفسرون يعتمدون في تفسيرهم على الفهم الشخصي، ويتجهون اتجاهات متعددة، واهتم كل واحد من المفسرين بحشو ما رز فيه من العلوم الأخرى، فصاحب العلوم العقلية يعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة كفخر الدين الرازي، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية كالجصاص والقرطبي، وصاحب البدعة يؤول كلام الله على مذهبه الفاسد، كالرمانى والجبائى، والقاضى عبد الجبار والزمخشري من المعتزلة، وصاحب التصوف يستخرج المعاني الإشارية كابن عربي. وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل في طياتها الغث والسمين، وفقد التفسير وظيفته الأساسية كالتهدية والإشارة ومعرفة أحكام الدين، بذلك طغى التفسير بالرأي على التفسير بالأثر وتدرج التفسير على هذا النمط ينقل المتأخر عن المتقدم مع الاختصار والتعليق حتى ظهرت أنماط جديدة في التفسير المعاصر حيث عني بعض المفسرين بحاجات العصر كتفسير الظلال والمنار والجواهر.

## ألوان التفسير

أ - أحكام التفسير بالمأثور:-

هو الذي يعتمد على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله، أو بما روى عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل ، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح. قال ابن تيمية: يجب أن يُعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معالي القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: "لتبين للناس ما نزل إليه م يتناول هذا وهذا، وقد قال، أبو عبد الرحمن

السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل.

ومن التابعين من أخذ التفسير كله عن الصحابة، عن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته استوقفه عيد كل آية وسأله عنها. الاختلاف فيه:-

كان الاختلاف بينهم قليل جداً بالنسبة إلى من بعدهم، وأكثره لا يعدو أن يكون خلافاً في التعبير مع اتحاد المعنى، أو يكون من تفسير العام ببعض أفرادها على طريق التمثيل قال ابن تيمية: "والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصلح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تصاد، وذلك نوعان:

الأول:- أن يعبر أحدهم عن العبارة غير تعبير صاحبة فيكون اتحاد في المستمر واختلاف في المعنى كتغيرهم "الصراط المستقيم" قال بعضهم القرآن إلى إتباعه وبعضهم قال الإسلام، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو إتباع القرآن.

الثاني:- أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه ومثاله ما نقل في قوله تعالى "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات" قيل السابق الذي يصلّى في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلّى في إثائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

وقيل السابق: المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة مقطر، والظالم لنفسه مانع الزكاة. حكم التفسير بالمأثور:-

التفسير بالمأثور هو الذي يجب إتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ في كتاب الله. قال ابن عباس "التفسير على أربعة أوجه، وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بحبها لغة، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله" فالأول هو الذي يرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللغة، والثاني هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، والثالث هو الذي يرجع إلى اجتهدهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي من بيان مجمل، أو تخصيص عام ونحو ذلك وأما الرابع فهو المغيبات كحقيقة قيام الساعة، وحقيقة الروح.

وقفات مع بعض كتب التفسير بالمأثور:-

أولاً : جامع البيان في تفسير القرآن للطبري:-



يعتبر ابن جرير الطبري من الأئمة الأعلام الذين برعوا في علوم كثيرة، وتركوا تراثاً إسلامياً ضخماً، وقد أحرز شهرة واسعة بكتابه في التاريخ : تاريخ الأمم والملوك، والتفسير جامع البيان في تفسير القرآن، ويعتبر كتابه في التفسير هو المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور.

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان مفقوداً إلى عهد ريب ثم قدر الله له الظهور حين وجدت نسخة مخطوطة طبع عليها الكتاب، وهو تفسير عظيم القيمة، لا غنى لطالب التفسير عنه.

وطريقة ابن في تفسيره أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا" ثم يفسر الآية مستشهداً بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم، ويعرض لكل ما روي في الآية ولا يقتصر على مجرد الرواية ويوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض، وقد يقف من السند موقف الناقد البصير فيعدل ويجرح، ويرد الرواية التي لا يثق بصاحبها، ويتعقب الأخبار المأخوذة من القصص الإسرائيلي. ويناقش مسائل العقيدة مناقشة فاحصة، يرد فيها على الفرق ومذاهب أهل الكلام. وينتصر لأهل السنة والجماعة.

ترجمة الإمام الطبري:-

هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير أبو جعفر الطبري، ولد سنة 224 هـ وتوفي سنة 310 هـ، وكان عالماً فذاً كثير الرواية ذا بصيرة بالنقل والترجيح بين الروايات، وله باع طويل في تاريخ الرجال وأخبار الأمم.

صنف إلى جانب كتابه جامع البيان مؤلفات أخرى منها تاريخ الأمم والملوك، والآداب الحميدة والأخلاق النفيسة، وتاريخ الرجال، واختلاف الفقهاء، وتهذيب الآثار.

ثانياً: تفسير القرآن العظيم لابن كثير:

هو من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور ، ويأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير فهو مفسر كلام ابن بالأحاديث والآثار مسنده إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاجه من جرح أو تعديل، ويرجح بعض الأقوال على بعض، كما أنه ينبه على الإسرائيليات ويذكر أقوال العلماء في الأحكام الفقهية، ويناقش مذاهبهم وأدلتهم أحياناً.

ترجمة الإمام ابن كثير:

هو إسماعيل بن عمر القرشي ابن كثير البصري ثم الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المحدث الشافعي، ولد سنة 705 هـ وتوفي سنة 774 هـ بعد حياة زاخرة بالعلم فقد كان فقيهاً متقناً ، ومحدثاً بارعاً، ومؤرخاً ماهراً. قال عنه الحافظ ابن حجر: "إنه كان من محدثي الفقهاء.

صنف إلى جانب التفسير كتاب البداية والنهاية في التاريخ والكواكب الدراري في التاريخ أيضاً والاجتهاد في طلب الجهاد، مجامع المسانيد.

ب- التفسير بالرأي:-

يطلق الرأي على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه أصحاب الرأي، أي أصحاب القياس.

والمراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب، ومناهجهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانتة في ذلك بالشعر الجاهلي والوقوف على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

متوقف العلماء من التفسير بالرأي:-

اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

فقوم تشددوا في ذلك فلم يجرؤوا على تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم، وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أدبياً متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما لي أن ينتهي إلى ما روي النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين. وقوم كان موقفهم على غير ذلك فلم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب واسع متوسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده.

الرأي قسمان:-

قسم جاء على موافقة كلام العرب، ومناهجهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه وهو التفسير بالرأي المحمود وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي.

وقسم غير جائز على قوانين اللغة العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط التفسير، وهو التفسير بالرأي المذموم، وهو مورد النهي ومحط الذم، وهو الذي يرمي إليه كلام ابن مسعود إذ يقول: "ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم التبذع، وإياكم والتنتع"

وقفة مع بعض كتب التفسير بالرأي المحمود:-

أ - تفسير أبو السعود:-

مؤلفه مؤلف هذا التفسير، هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الحنفي المولود في سنة 893هـ بقرية قريبة من القسطنطينية، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل

حتى قال بعضهم فيه: تربي في حجر العلم حتى ربي، وارتضع ثدي الفضل إلى أن ترعرع وحبا، ولا يزال يخدم العلوم الشريفة حتى رحب باعه، وامتد ساعده واشتد اتساعه، قرأ كثيراً من كتب العلم على والده، وتتلذذ لكثير من جلة العلماء، فاستفاد منهم علماً جمّاً، ثم طارت سمعته، وفاضت شهرته وعظم حينه.

تولى التدريس في كثير من المدارس التركية، وذكروا عنه أنه كان يكتب جواب الفتوى على منوال ما يكتبه السائل من الخطاب فإن كان السؤال نثراً مسجعاً كان الجواب مثله، وإن كان بلغة العرب كان بلغة العرب، وإن كان بلغة الترك، كان بلغة الترك. وهكذا كما يشهد للرجل سعة أفقه وغزارة مادته.

كان اشتغاله بالتدريس وتوليه القضاء ثم الفتوى سبباً عائقاً له عن التفرغ. والتصنيف والتأليف، ولكن اختلس فرصاً من وقته فصرفها إلى كتابه التفسير الذي نحن بصدده. توفي رحمة الله بمدينة القسطنطينية سنة 982هـ ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري فرحمه الله رحمة واسعة.

التعريف بهذا التفسير:-

اسمه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (لأبي السعود). لم يخرج هذا التفسير للناس دفعة واحدة بسبب انشغال مؤلفه في التدريس والقضاء والفتوى، بل ذكروا أنه ابتدأ فيه، فلما وصل إلى آخر سورة (ص) عرض له من الشواغل ما جعله يقف في تفسيره عند هذا الحد، قبض ما كتب ثم أرسله إلى الباب العالي، فتلقاه السلطان سليمان خان بحسن القبول وانعم عليه وزاد في وظيفته كل يوم خمسمائة درهم، ثم يفسر له بعد ذلك إتمامه، فأتته بعد سنة، ثم أرسله إلى السلطان ثانياً بعد إتمامه فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه، وزاد في وظيفته مرة أخرى.

والحق أن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصيوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير.

محاسن هذا التفسير والمآخذ التي أخذت عليه

الكتاب كثير العناية سبيل العبارة وصوغها، مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي البلاغة في القرآن لدرجة أنه يكاد يكون هذا التفسير هو أول كتب التفسير المبرزة من هذه الناحية.

يهتم بإبداء وجود المناسبات بين الآيات كما نلاحظ عليه أنه يعرض أحياناً لذكر القراءات، ولكن بقدر ما يوضح به المعنى، ولا يتوسع كما يتوسع غيره.

ومن ناحية أخرى نجد أنه مقلّ في سرد الإسرائيليات غير مولع بذكرها، وإن ذكرها فإنه يذكرها لا على سبيل الجزم بها والقطع بصحتها بل بصدد ذكر الرواية بقوله ذكر، أو قيل مما يشعر بضعفها والله كان لا يعقب عليها بعد ذلك ولعله يكتفي بهذه الإشارة.

ومما يؤخذ عليه أنه يروى بعض القصص عن بعض من اشتهر بالكذب كالكلبي ولكن يتجاوز هذا المأخذ بقوله بعد سرد القصة "والله تعالى أعلم" وهذا يشعر بأنه يشكك في صدقها وصحتها.

كما أنه يقل من ذكر المسائل الفقهية بل نجده سرد المذهب في الآية ولا يزيد على ذلك، كما نلاحظ عليه أنه يعرض للناحية النحوية ويذكر وجوه الإعراب إذا كانت الآية تحتل ذلك ويوضح واحداً منها.

#### ب- تفسير البيضاوي (التفسير والمفسرون ج 1 ص 292)

مؤلف هذا التفسير هو قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي، وهو من بلاد فارس قال السبكي: "كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً صالحاً متعبداً". ولي القضاء شيراز، وتوفي بمدينة تبريز سنة 185 ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوابع في أصول الدين وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير وهو ما نحن بصده الآن.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه

اسمه أنوار التنزيل وأسرار التأويل، وهو تفسير متوسط الحجم جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة، وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشف للزمخشري، ولكن ترك ما فيه من اعتراضات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشف مثل قولهم أن الجن لا تسلط على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء بمعنى أن الجن لا يخبط الإنسان ولا يصصره كما أنه وقع فيما وقع فيه صاحب الكشف من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً يبين فضله وما لقارئها من الأجر والثواب عند الله وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، فهي أحاديث موضوعة باتفاق أهل السنة.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الاصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه عمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، والطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز وعبرة تذق أحياناً ويخفى إلا على ذي بصيرة ثانية وفطنة نيرة، كما أن بهم أحياناً بذكر القراءات ولكن لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ كما أن يعرض للصناعات النحوية، ولبعض المسائل الفقهية بدون توسع.

كذلك نجد البيضاوي كثيرا ما يقرأ مذهب أهل السنة، ومذهب المعتزلة عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بتطريق فقط النزاع بينهم، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية 2،3 من سورة البقرة "هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" نراه يعرض لبيان معنى الأيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخارج بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة.

والبيضاوي رحمه الله مُقل جدا من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله روي أو قيل ... أسفارا من يضعفها.

ثم إنه إذا عرض للآيات الكريمة فإنه لا يترك بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة. وجملة القول، فالكتاب من أمهات كتب التفسير التي لا يستغنى عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى ، ويقف على أسرارهِ ومعانيهِ.

وقفة مع كتب التفسير بالرأي المذموم (التفسير والمفسرون ج2 ص292 وما بعدها ..)  
أ- تفسير الخوارج:

تعددت فرق الخوارج، وتعددت مذاهبهم وآراؤهم فكان طبيعيا وهم ينتسبون إلى الإسلام ويعترفون بالقرآن أن تبحث كل نزقة منهم عن أسس من القرآن الكريم تبني عليها مبادئها وتعاليمها، وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها، فما رأته في جانبها، ولو ادعاء. تمسكت به واعتمدت عليه، وما رأته في غير صالحها وحاولت التخلص منه بصرفه وتأويله، بحيث لا يبقى متعارضا مع آرائها وتعاليمها، والذي يقرأ تاريخ الخوارج، ويقرأ مالهم من أفكار وتفسيرية يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم وتحكم فيها فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا على صخرته ، ولا يدركون شيء من معانيهِ إلا تحت تأثير سلطانه، ولا يأخذون منه إلا بقدر ما ينصر مبادئهم ويدعو إليه .

فمثلا نرى أن أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد في نار جهنم. وها نحن نسوق بعض هذه الآيات التي استندوا إليه ا ووجهة نظرهم فيها فهي التي تعيننا وهي التي تينا إلى أي حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة في فهم نصوص القرآن فمن هذه الأدلة ما يأتي:

قوله تعالى في سورة آل عمران "ومن على الناس حج البيت من استطاع غليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين". قالوا: نجعل تارك الحج كافرا.

وقوله تعالى من سورة يوسف " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " قالوا: والفاسق لفسقه وإصراره عليه آس من روح الله، فكان كافرا. ومنها قوله تعالى من سورة المائدة "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" قالوا وكل مرتكب للمؤمن منذ حكم بغير ما أنزل

الله.

ومنها قوله تعالى: "مؤمناً فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن ، فوجب أن يكون كافراً. هذه بعض الآيات وغيرها كثير من التي تمسك بها الخوارج في موقفهم من مرتكب الكبيرة الذي لم يتب، والتي حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفهم من المسلمين. ولا يسع الذي يعرف سياق هذه الآيات ويعرف الأحاديث الواردة في شأن المؤمنين، لا سعة إلا أن يحكم أن القوم متعصبون وفند بقوله بدافع العقيدة وسلطان المذهب.

الإنتاج التفسيري للخوارج:

لم يكن للخوارج مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة أو غيرهما من فرق المسلمين التي خلفت لنا الكثير من كتب التفسير، وكل ما وصل إليه من تفسير الخوارج الأول لم يزد عن بعض إفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم واشتملت عليها مناظرتهم ومن هذه الكتب:

تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي من أهل القرن الثالث الهجري.

تفسير هود بن محكم الهواري من أهل القرن الثالث الهجري

لاغي العمل ليوم الأمل للشيخ محمد بن يوسف اطغين ولديه أيضاً هيمان الزاد إلى دار المعاد وهذا الذي نحن معبدون.

وهذه الكتب هي للأباضية وحدهم ولعل السر في ذلك أن جميع فرق الخوارج ما عدا الأباضية باد ولم يبق لا أثر.

أما الاباضية فموجودون إلى يومنا هذا ومذهبهم نشر في بلاد المغرب وحضرموت وعمان، وزنجبار.

هيمان الزاد إلى دار المعاد/ لمحمد يوسف اطغين (ص306 التفسير والمفسرون ج2)

التعريف بمؤلف هذا التفسير

هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح اطغين الوهبي الأباضي، وهو من وادي ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب، نشأ بين قومه وعرف عندهم بالزهد والورع. اشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وانكب على القراءة والتأليف، حتى قيل إنه لم ينم في ليلة أكثر من أربع ساعات وله من المؤلفات في شتى العلوم ثروة عظيمة تربوا على الثلاثمائة مؤلف منها في التفسير هيمان الزاد إلى دار المعاد وهو ما نحن بصدد، توفي المؤلف سنة 1332هـ وله من العمر ست وتسعون سنة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الاباضية والخوارج، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عندهم في عصورهم الأولى، وذلك لقرب عهد مؤلفه، وتأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه، والذين خالفوه فيه. نقرأ في التفسير فنجد أن صاحبه



يذكر في أول كل سورة عدد آياتها، والمكي منها والمدني، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهدا لذلك في الغالب بالأحاديث الموضوعة في فضائل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشه كلام المشعوذين الدجالين ثم بعد ذلك يشرح الآيات شرحا وافيا فيسهب في المسائل النحوية واللغوية والبلاغية ويفيض في مسائل الفقه والخلاف بين الفقهاء كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة ، وهو أكثر إلى حد كبير من ذكر الإسرائيليات فلا تكاد تأتي آية يمكن أن يجعلها في جانبها إلا مال بها إلى مذهبه، وجعلها دليلا عليه ولا بأية تعارضه بالمخالفة إلا تلمس لها كل ما في طاقته من تأويل ليتخلص من معارضتها وقد يكون تأويلا متكلفا وفسادا ، لا ينجيه من معارضة الآية له، لكنه التعصب الأعمى ، يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله، ويطرح بفكره الصائب، ليجيء بعقل فارغ وتفكير خاطئ.. ومما جاء في هذا التفسير:

أنه يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وليس بخارج منها، فهو يفسر قوله تعالى "بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" يقول: سيئة : خصلة قبيحة وهي الذنب الكبير سوء أكان نفاقا أو إشراكا. والمؤلف في تفسيره يحمل ويندد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب في النار على قدر معصيته ثم يدخل الجنة فقد ندد بهم ولمذهبهم فقال: "وترى أقواما ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاضون إليه ود في قوله : " لن تمسنا النار إلا أياما معدودات". ثم أن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها ، ويحمل على الاشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة والله لم يتب.

ويرى المؤمن أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين ولا لأصحاب الكبائر، وعن رؤية الله تعالى قال أنها غير جائزة ولا تقع لأحد على الإطلاق.

وفى أفعال العباد يتأثر المؤلف تارة بآراء المعتزلة فيقول أن أفعال العباد كلها بإرادة الله وتارة أخرى يخالفهم، ويقف من التشابه موقف التأويل، ويطيب على من يقول بالظاهر. والمؤلف يشيد بالخوارج ويحط من قدر علي وعثمان ومن دلتهم فلا تكاد تأتي مسألة أو مناسبة فيها ذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، ولا ذكر لعلي أو عثمان إلا رماهما بكل نقيضه وهذا وإن المؤلف يفخر بنفسه وبأهل نحلته ويرى أنه وحزبه هم أهل الإيمان الصادق والدين القوم والتفكير السليم ومن عداهم فضالون ومضلون.

هذا هو المفسر الاباضي الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة والتعصب للمذهب الفاسد.

ب- تفاسيري المعتزلة: التفسير والمفسرون ج 1 ص 349

أقام المعتزلة مذهبهم على الأصول الخمسة الخاصة بهم وهي: التوحيد، والعدل، والوعيد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن المعلوم أن هذه الأصول لا تتفق ومذهب أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أهم خصومهم، لهذا كان من الضروري لهذه الفرقة في سبيل مكافحة خصومها أن تقيم مذهبها، وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن، وكان لابد لها أيضا أن ترد الحجج القرآنية لهؤلاء الخصوم، وتضعف من قوتها، وسبيل ذلك كله هو النظر إلى القرآن أولا من خلال عقيدتهم، ثم إخضاعهم عبارات القرآن لأرائهم التي يقولون بها، وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع نحلتهن وعقيدتهن.

ثم إن هذا السلطان العقلي المطلق، قد جر المعتزلة إلى إنكار ما صح من الأحاديث التي تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية.

كذلك نجد المعتزلة قد حرصوا كل الحرص على الطريقة اللغوية التي تعتبر عندهم المبدأ الأعلى لتفسير القرآن، وهذا المبدأ اللغوي، يظهر أثره واضحا في تفسيرهم للعبارات القرآنية التي لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية، أو العبارات التي تحتوى على التشبيه، أو العبارات التي تصادم بعض أصولهم، فتراهم يحاولون أولا أبطال المعنى الذي يرونه مشتبهاً في اللفظ القرآني، ثم يثبتون لهذا اللفظ معنى موجودا في اللغة يزيد هذا الاشتباه، ويتفق مع مذهبهم، ويستشهدون على ما يذهبون إليه من المعاني التي يحملون ألفاظ القرآن عليها بأدلة من اللغة والشعر العربي القديم .

فمثلا الآيات التي تدل على رؤية الله تعالى كقوله سبحانه "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" وقوله تعالى: "على الأرائك ينظرون" . نجد المعتزلة ينظرون إليه بغير العين التي ينظر بها أهل السنة، ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يطبقوا مبدأهم اللغوي، حتى يتخلصوا من الورطة التي أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم، فإذا بهم يقولون إن النظر إلى الشيء في العربية ليس مختصا بالرؤية المادية.

وفى القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم يحاول المعتزلة تحويل النص القرآني من أجل عقيدتهم إلى ما لا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمثلا في قوله تعالى: "وكلم الله موسى تكليماً" فإن مذهبهم لا يتفق وهذا اللفظ القرآني حيث جاء المصدر مؤكدا للفعل، رافعا لاحتمال المجاز، فيبادر إلى تحويل هذا النص إلى ما يتفق ومذهبه فيقرؤه بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول، ورفع موسى على أنه فاعل.

وبعض المعتزلة يبقى اللفظ القرآني على وضعه المتواتر، ولكنه عمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادما لمذهبه فيقول في قوله تعالى: إن الكلم من الكلم بمعنى الجرح ، فالمعنى: وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن.

وكذلك نجد المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند جمهور أهل السنة موقف المعارضة والكفاح، فأهل السنة يقولون بحقيقة السحر ويعترضون بماله من تأثير في المسحور، ويقولون بوجود الجن ، ويعترفون بما لهم من قوة التأثير في الإنسان حتى ينشأ عن ذلك المس والصرع، ويقولون بكرامات الأولياء، ولكن المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياسا للحقائق الدينية وقفوا ضد هذا كله وجعلوه من قبيل الخرافات، وبلغ بهم الأمر أن أنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث التي تصرح بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحر، ولم يقفوا طويلا أمام ما يعارضهم من سورة الفلق، بل تخلصوا بتأويلات ثلاث ذكرها الزمخشري في كشفه.

أهم كتب التفسير الإعتزالي:

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (الزمخشري)

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الإمام الحنفي المعتزلي الملقب بجار الله، وإنما لقب بهذا اللقب لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زمانا حتى عرف بهذا اللقب واشتهر به وصار كأنه علم عليه.

ولد في رجب سنة 467 هـ بزمخشر من قرى خوارزم، وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم ، دخل خراسان مرارا عديدة، وما دخل بلدا إلا واجتمع عليه أهلها وتتلذذوا له، وما ناظر أحدا إلا وسلم له واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعه. قيمة الكشاف العلميّة:

قيمة هذا التفسير - بصر ف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يسبق مؤلفه إليه ، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم. لاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب. والمعرفة بأشعارهم وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوبا جميلا لفت إليه أنظار العلماء وعلق به قلوب المفسرين.

والناظر نظرة فاحصة على العمل التفسيري الذي قام به العلامة الزمخشري في كشفه، يظهر له من أول وهلة، أن المبدأ الغالب عليه في جهوده التفسيرية كان في تبیین ما في القرآن من التحفة البلاغية التي كان لها كبير الأثر في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله.

والزمخشري كغيره من المعتزلة إذا مر بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه ، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهري ، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجوداً في اللغة. كذلك نرى الزمخشري يعتمد في تفسيره على الفروض المجازية في الكلام الذي يبدو في حقيقته بعيداً وغريباً. فمثلاً عند قوله تعالى في سورة الأحزاب "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال .." يقول ما نصه: "وهو يربو بالأمانة الطاعة فعظم أمرها وفخم شأنها. وعند قوله تعالى في سورة الحشر "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" نراه يقول هذا تمثيل وتخيل كما مر في قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة" . وقد دل عليه قوله: "وتلك الأمثال نضربها للناس. والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره.

والمبدأ الذي يسير عليه الزمخشري في تفسيره ويعتمد عليه عند ما تصادمه آية تخالف مذهبه وعقيدته، هو حمل الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة، وهذا المبدأ قد وجده الزمخشري في قوله تعالى من سورة آل عمران "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات". فالمحكمات هي التي أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والتشبيه، والمتشابه ويرد إليه ويفسر به.

هذا التفسير لا غبار عليه، ومبدأ حمل الآيات المتشابهة على المحكمات هو مبدأ سليم، قاد به الزمخشري وغيره، لكن الذي لا نسلم للزمخشري به هو تطبيقه هذا المبدأ على الآيات التي تصادمه، فإذا مرّ بآية تعارض مذهبه، وآية أخرى في موضوعها تشهد له بظاهرها، نراه يدعي الاشتباه في الأولى والأحكام في الثانية، ثم يحمل الأولى على الثانية، وبهذا يرضي هواه المذهبي، وقيدته الاعتزالية.

فمثلاً في قوله تعالى في سورة الأنعام: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار" وقوله تعالى في سورة القيامة: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة".

فهو يرى أن الآية الأولى محكمة، والثانية متشابهة، وعليه فيجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بحملها عليها وردّها إليه . ثم إن الزمخشري ينتصر لعقائد المعتزلة وينتصر لمذهبه الاعتزالي بكل ما أوتي من قوة الحجة وسلطان الدليل سواء كان ذلك في حق مرتكب الكبيرة أو أن الكافر والعاصي سواء في الخلود في النار، وهو لا يقول بالسحر وتلا يعتقد في السحرة كغيره من المعتزلة.

ومن أجل هذا الخلاف العقيدي بين الزمخشري وأهل السنة، نجد الخصومة بينهم حادة والحقيقة حتى أخرج كل منهم الآخر من عقيدة التوحيد ورماه بالزيغ والضلال.

وفى المسائل الفقهية لا يخوض فيها الزمخشري كثيراً في كشافه وبذلك فهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفي.

وهو فعل كذلك من الروايات الإسرائيلية ، وما يذكر من ذلك إما أن يصوره بلفظ "روى" الشعر بضعف الرواية وبعدها عن الصحة، وإما إن يفوض أمره وعلمه إلى الله سبحانه وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين ، وإما أن بينه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين.

وهكذا لم يقع الزمخشري فيما وقع فيه غيره من المفسرين من الاغترار بالقصص الإسرائيلي وهذه محمده أخرى لهذا المفسر الكبير وإن كان قد اغتر بالآحاديث الموضوعة في فضائل السور فضمنها تفسيره.

تفسير الفقهاء [التفسير والمفسرون ج 2 ص414]

كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي:

نزل القرآن الكريم مشتملاً على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم، وكان الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفهمون لا تحملن هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية، وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم جره للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكماً شرعياً صحيحاً، فكان أول شيء يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم ، فإن وجدوا فيه فيها، وإلا لجؤوا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن لم يجدوا اجتهدوا واعملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة.

غير أن الصحابة في نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقون على الحكم المستنبط، وأحياناً يختلفون في فهم الآية، فتختلف أحكامهم في المسألة التي يبحثون عن حكمها.

ظل الأمر على هذا الحال إلى عهد ظهور أئمة المذاهب وغيرهم وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق عن تقديمهم حكم عليها، لأنها لم تكن على عهدهم فأخذ كل إمام ينظر إلى هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة وغيرهما من مصادر التشريع، ثم يحكم عليها بالحكم الذي يتدرج في ذهنه ويعتقد أنه هو الحق الذي يقوم على الأدلة والبراهين.

وكانوا يتفقون أحياناً ويختلفون أخرى غير أنهم في اختلافهم لم تظهر منهم بادرة للتعصب للمذهب، وكان الواحد منهم ليس بعزيز عليه أن يرجع إلى رأي مخالفة إن ظهر له أن الحق في جانبه - إلى غير ذلك مما يدل على انتشار روح التقليد لهؤلاء الأئمة - التقليد الذي يقوم

على التعصب المذهبي، ولا يعرف التسامح ، ولا يطلب الحق لذاته، ولقد بلغ ببعض هؤلاء المقلدة إلى أن ينظروا إلى أقوال أئمتهم كما ينظرون إلى نص الشارع، ومع هذا الغلو في التعصب المذهبي فإننا لم نعدم من التلوين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة، فنظر في أقوالهم نظرة الباحث الحر الذي يساير الدليل حتى يصل به إلى الحق أيا كان قائله.

هذا وإننا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات في التفسير الفقهي، فإننا لا نكاد نعثر على شيء من ذلك قبل عصر التدوين، اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة ، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم في التفسير الفقهي، فمن الحنفية ألف أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص أحكام القرآن وهو مطبوع في ثلاث مجلدات كبار ومتداول بين أهل العلم.

ومن الشافعية ألف أبو الحسن الطبري المعروف بالكنيا الهراي كتابه أحكام القرآن وهو مخطوط في مجلد كبير، ومن المالكية ألف أبو بكر بن العربي كتابه أحكام القرآن وهو مطبوع في مجلدين كبيرين ومتداول بين أهل العلم. وهناك كتب أخرى ذكرها صاحب كشف الظنون لا تطيل بذكرها، ويكفي أن نعرض لأهمها:

#### 1- أحكام القرآن للجصاص الحنفي:

ترجمة المؤلف: هو أبو بكر ، أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصاص نسبة إلى العمل بالجص ولد رحمة الله ببغداد سنة 305هـ . كان إمام الحنفية في وقته ، أخذ عن أبي سهل الزجاج ، وعن أبي الحسن الكرخي، وعن غيرهما من فقهاء عصره، واستقر له التدريس ببغداد، وكان على طريق الكرخي في الزهد، وبلغ من زهده أنه طلب إليه أن يلي القضاء فامتنع ومصنفاته كثيرة أهمها كتاب أحكام القرآن الذي نحن بصدد.

وعلى الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل في تدعيم مذهب الحنفية على البراهين والأدلة، أما وفاته فكانت سنة 370هـ،.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي خصوصا عند الحنفية، لأنه يقوم على ترويج مذهبهم والدفاع عنه وهو يعرض لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التي لها تعلق بالأحكام فقط.

والكتاب أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن نتيجة استطراد مؤلفه إلى كثير من مسائل الفقه والخلافات بين الأئمة، مع ذكره للأدلة بتوسع كبير .

ثم إن المؤلف متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير مما جعله يتعسف في تأويل بعض الآيات حتى يجعلها في جانب فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى من سورة البقرة: "ثم أتموا



الصيام إلى الليل" نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل في صوم التطوع لزم إتمامه. ثم إن الجصاص ليس عن اللسان مع مخالفة أمثال الإمام الشافعي وغيره من الأئمة وكثيرا ما يرمي الشافعي وغيره من مخالفي الحنفية بعبارات شديدة كوصفه لبعض كلام الشافعي بأنه كلام فارغ ويرميه بالضعف، وينزل به إلى مستوى الأحداث من أصحابه ويعتبر الشافعي ممن لا يعتمد برأيه ويمكن أن يعتد الإجماع بدونه. وفي معتقده يرجع الجصاص إلى عقيدة المعتزلة ويتأثر بها في تفسيره خاصة نفى الرؤية ونفي السحر.

والجصاص يبدو من البغضاء لمعاوية رضي الله عنه ويستشفه من صفة التمكين في الأرض والاستخلاف أيضا، وفي تفسيره لقول الله تعالى : "وإن طائفتان ...." نجده يجعل عليا هو الحق ومعاوية ومن معه هو الفئة الباغية، كذلك كل من خرج على علي، وكان الأولى بالجصاص أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابي ويفوض أمره إلى الله. والكتاب مطبوع في ثلاث مجلدات كبار ومتداول بين أهل العلم. أحكام القرآن للكنيا الهراسي (الشافعي)

ترجمة المؤلف: هو عماد الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري المعروف بالكنيا الهراسي. الفقيه الشافعي، المولود سنة 450هـ. الكنيا في لغة العجم معناها الكبير الأقدم المقدم بين الناس. أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور ، وقفته على إمام الحرمين الجويني مدة حتى برع، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم إلى العراق وتولى التدريس بالمدرسة النظامية إلى أن توفي سنة 504هـ ، كان رحمة الله فصيح العبارة، حلو الكلام محدثا يستعمل الأحاديث في مناظراته ومجالسه. التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية، ذلك لأن مؤلفه شافعي لا يقل تعصبا لمذهبه عن الجصاص بالنسبة للمذهب الحنفي، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعي ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تلون في جانب مخالفه. غير أن الهراسي والحق يقال كان عف اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى، فلم يخض فيهم كما خاص الجصاص في الشافعي وغيره، وكل ما عليه أنه وقف من الجصاص موقفا كان فيه شديد المراس، قوي الجدل قاسي العبارة ، إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التي ذكرها الجصاص في تفسيره وعاب بها مذهب الشافعي، ففند كل شبهة أوردها، ودفع كل ما وجده إلى مذهب الشافعي بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أن اقتصر للشافعي من الجصاص ، فرماه بالعبارة الساخرة، والألفاظ المفزعة. والجزاء من جنس العمل. فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النساء: "حرمت عليكم أمهاتكم" نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه

القائل: بأن الزنا بامرأة يحرم على الزاني أصول المرأة وفروعها.  
ويفند ما رد به الجصاص على الشافعي فيقول: "انه - أي الجصاص - لم يفهم معنى كلام الشافعي رضي الله عنه، ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال ، ولقنهم معاني كلام الله رجال وليس هو منهم".

### 3- أحكام القرآن - لابن العربي المالكي

ترجمة المؤلف: هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعامزي الأندلسي، الإمام، العلامة، المتبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها كان أبوه من فقهاء اشبيلية ورؤسائها.

ولد أبو بكر سنة 468هـ ، تأدب ببلده وقرأ القراءات ثم رحل إلى مصر والشام وبغداد وأخذ عن علمائها حتى اتفق الفقه والأصول وقيد الحديث وتبحر في التفسير وغيرها من العلوم وأخيرا عاد إلى بلده اشبيلية بعلم كثير لم يأت به أحد قبله.

هذا وقد ألف رحمه الله تصانيف كثيرة منها أحكام القرآن الذي نحن بصدد الآن.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا التفسير لسور القرآن الكريم، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط وطريقته في ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام ثم يأخذ في شرحها آية آية .. قائلا الآية الأولى وفيها خمس مسائل (مثلا) . الآية الثانية وفيها سبع مسائل وهكذا حتى ينتهي من آيات الأحكام الموجودة في السورة.

يعتبر هذا الكتاب مرجعا مهما للتفسير الفقهي عند المالكية وذلك لأن مؤلفه مالكي تأثر بمذهبه فظهرت عليه روح التعصب له والدفاع عنه، والذي يتصفح هذا التفسير يلمس فيه روح الإنصاف لمخالفيه أحيانا، كما يلمس منه روح التعصب المذهبي التي تستولي على صاحبها فتجعله أحيانا كثيرة يرمي مخالفه وإن كان إماما له قيمته بالكلمات المقذعة اللاذعة تارة بالتصريح وأخرى بالتلويح.

طرف من إنصافه: إذا أردت أن تطلع على شيء من إنصاف الرجل واستعماله لعقله فانظر إليه عندما يفسر قول الله تعالى من سورة البقرة "ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد". الاعتكاف في اللغة هو اللبث وهو غير مقدر عند الشافعي أقله لحظه ولا حد لأكثره وقال مالك وأبو حنيفة هو مقدر بيوم وليلة، لأن الصوم عندهما من شرطة قال علماؤنا لأن الله تعالى خاطب الصائمين، وهذا لا يلزم في الوجهين أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالى لمن صام فلا يلزم بظاهره ولا باطنه، لأنها حال واقعه لا مشترطة وأما تقدره بيوم وليلة لأن الصوم من شرطة فضيف، فإن العبارة لا تكون مقدره بشرطها ألا ترى أن الطهارة شرط في الصلاة، وتتقضي الصلاة وتبقى الطهارة، فأنت ترى أن المؤلف لم يرقه الاستدلال الذي أظهر بطلانه،

وهذا دليل على أنه يستعمل عقله الحر أحيانا، فلا يسكت عنه الزلة العلمية فيما يعتقد، وإن كان بها ترويج لمذهبه.

طرف من تعصبه: في تعرضه لقوله تعالى من سورة النساء: "وإذا حييتم بتحية . . . . " حيث يقول : المسألة السابعة إذا كان الرد فرضا بلا خلاف فقد استدل علماؤنا على أن هذه الآية دليل على وجوب الثواب في الحقبة للعين وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة.

وفى جملته على مخالفه مذهب نرى أن الرجل ليس عن اللسان مع الأئمة، ولا مع أتباعهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبي الذي يقود صاحبه إلا ما لا يليق به، ويدفعه إلى الخروج عن حد اللطافة والكماسة.

احتكامه إلى اللغة، وكرهته للإسرائيليات، وفقرته من الأحاديث الضعيفة. كثيرا ما يحتكم المؤلف إلى اللغة في استنباط المعاني من الآيات وفي الكتاب أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليه . كما أنه شديد النفور من الخوض في الإسرائيليات. كذلك نجد ابن العربي شديد النفور من الأحاديث الضعيفة ويحذر منها في تفسيره وأوصى أصحابه ألا يستغلوا من الأحاديث بما لا يصلح سنده. والكتاب مطبوع في مجلدين ومتداول بين أهل العلم.

## الباب الثالث الأعجاز القرآني

### 1-1 تعريف المعجزة

أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة على فترة من الرسل بشيرا ونذيرا. كما أخبر سبحانه بذلك بقوله: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}، آية 28 سورة سبأ. وأيده بالمعجزات الباهرات ومن أجلها وأعظمها معجزة القرآن الكريم، أنزله بلسان عربي مبين، لأنه لسان قومه الذين بعث فيهم، ومن سنته سبحانه، أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه كما أخبر بذلك في سورة إبراهيم {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} آية رقم 4. وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، أن يرسل إليهم رسلا بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون، إبلاغهم له، وقد مضت سنة الله أنه ما أرسل من رسول إلا أيده بمعجزة تؤيده في دعواه الرسالة. والمعجزة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة، برهان قاطع على صدقه أنه مبلغ عن الله.

### 1-2 أنواع المعجزة

والمعجزة نوعان: معجزة حسية وأخرى معنوية بالنسبة للنوع الأول وهو المعجزة الحسية. فقد كانت كل معجزات الرسل الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل. كمعجزات موسى عليه السلام مثل العصا المشار إليها في قوله تعالى في سورة طه: {وما تلك بيمينك يا موسى} قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. قال القها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى..} وكمعجزة الناقة لصالح عليه السلام. كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن لعيسى عليه السلام وكهذا. وهذه المعجزات قد انقضت بزمانها وبقيت أخبارها للعبرة والعظة. لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. وأما النوع الثاني: فهو المعجزة المعنوية وهي معجزة تدرك بالعقل وهذه معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وهي القرآن الكريم. يثبت مما تقدم أن معجزات الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد انقضت بانقضاء العصور التي نزلت بها. وانتهت بانتفاء الأقسام الذين حلت بينهم وكانت معجزات حسية. أما معجزة القرآن الكريم فهي باقية بقاء الرسالة المحمدية. ذلك أن رسالة رسول الله قد استوعبت الزمان والمكان. فكان لابد من استمرار المعجزة، بمعنى أنه إذا ارتاب قوم في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عصرنا الحاضر، فمن أين نأتي بالرسول ليظالبوه بمعجزة تدل على صدقه؟ ولهذا كان القرآن نفسه بيانا ومعجزة في أن واحد. لهذا كلما تقدم المنكرون الجاحدون في العلم المادي انكشف من وجوه إعجاز القرآن وجه يقيم ضلالات الكفر، ويهدي إليه الآلاف المؤلفة في كل عصر وهو ما نشاهده الآن وقبل الآن وما نستشده الأجيال القادمة بعد الآن بإذن الله.

### 1-3 مراحل التحدي في إعجاز القرآن

لقد تدرج القرآن في تحدى القوم على مراحل. ففي المرحلة الأولى طلب منهم أن يأتوا بحديث مثله حينما قالوا بأنه حديث مفترى: فقال الله تعالى لهم في سورة "الطور": {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين}. آية 34. فلما عجزوا عن الإتيان بمثله. طلب الله سبحانه وتعالى منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات - على زعمهم - فقال جل ذكره في سورة هود: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}. الآية 13 فلما عجزوا طلب الله سبحانه منهم أن يأتوا بسورة من مثله كما جاء ذلك في سورة البقرة: {وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} آية 23. ولما نكر التحدي لهم بمراحل مختلفة، وجاء عجزهم مرة بعد أخرى، جاء التحدي النهائي لهم: {قل لنن اجتماعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} آية 88 الإسراء. لذلك كانت حجة الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قد أنزل عليه كتابا عربيا مبينا، تعرف العربي ألفاظه، ويفهمون معانيه، إلا أنهم لا يقدرون على الإتيان بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة واحدة مثله، ولو جهدوا جهدهم واجتمع معهم الجن والإنس.

### 1-4 القدر المعجز من القرآن الكريم

مما تقدم من بيان مراحل التحدي في القرآن، يظهر أن القدر المعجز من القرآن هو الإتيان بمثل أقصر سورة من سورة، وإذا علمنا أن أقصر سورة هي سورة الكوثر، وبها ثلاث آيات. فإن القدر المعجز من القرآن هو ثلاث آيات فأكثر.

### 1-5 وجوه إعجاز القرآن الكريم

وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة يصعب عددها ويعجز حصرها ولكننا ذاكرون ثلاثة أوجه على سبيل المثال: فمن ذلك: إخباره بالغيب، مما لا يقدر البشر عليه. فقد أخبر الله تعالى نبيه بأنه سيظهر دينه على الأديان، وذلك في قوله تعالى في سورة التوبة: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}. آية 33. وقد فعل ذلك جل وعلا. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه، عرفهم ما وعدهم الله به من إظهار دينه، ليتقوا بالنصر، ويستيقظوا بالنهج. ومن ذلك ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصص الماضيين من الرسل وأممهم، ومعلوم أنه كان صلى الله عليه وسلم أميا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. ولم يكن يوق شيئا من كتبهم، ثم أخبر بذلك وكان صادقا عليه الصلاة والسلام في ما أخبره.

ومن وجوه إعجاز القرآن: علومه ومعارفه وبيان ذلك أن القرآن قد اشتمل على علوم ومعارف في هداية الخلق إلى الحق، بلغت من نبالة القصد، ونصاعة الحجة، وحسن الأثر وعموم النفع، مبلغا يستحيل على محمد - وهو رجل أمي نشأ ببيت لا مبنى كما تقدم - أن يأتي بها من عند نفسه. بل يستحيل على أهل الأرض جميعا من علماء وأدباء وفلاسفة ومستشرقين وأخلاقين أن يأتوا من

تلقاء أنفسهم بمثلها.

ومن وجوه إعجاز القرآن : وفاؤه بحاجات البشر:

ومعنى ذلك: أن القرآن جاء بهدايات تامة كاملة، تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاء لا يمكن وجوده في أي تشريع ولا دين، وينجلي ذلك واضحا في المقاصد النبيلة التي رُمى إليها القرآن:

من إصلاح العقائد. والعبادات، والأخلاق، ومن إصلاح المجتمع، وإصلاح الحكم من سياسة واقتصاد، وما إلى ذلك. وخلاصة القول: أن القرآن قد احتوى على علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد، في كلمات قليلة وأحرف معدودة: كما قال تعالى ذكره: {وما فرطنا في الكتاب من شيء} سورة الأنعام آية 38.

وقوله : {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ..} سورة النحل آية 89.

فالقرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا واهبها جل وعلا، ثم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فلا ما استأثر به سبحانه، وقد ورث، هذا العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون لهم بإحسان ثم علماء هذه الأمة إلى يوم القيامة.

#### المراجع

- 1- البرهان في علوم القرآن / للزركشي.
- 2- الإتيان في علوم القرآن / للسيوطي.
- 3- مناهل العرفان في علوم القرآن / للزرقاني.
- 4- مباحث في علوم القرآن / صبحي الصالح.
- 5- كل الكتب الذي ذكرت في الباب الثاني.
- 6- طبقات المفسرين للداودي .
- 7- التفسير والمفسرون د. محمد حسين الذهبي.
- 8- مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني

## المحتويات

| الموضوع                           | الصفحة |
|-----------------------------------|--------|
| الباب الأول: علوم القرآن          | 1      |
| تنزيلات القرآن الكريم             | 1      |
| تنزيل القرآن                      | 1      |
| كيفية أخذ جبريل للقرآن            | 4      |
| علوم القرآن                       | 5      |
| جمع القرآن وتدوينه                | 7      |
| معرفة المكي والمدني               | 12     |
| أسباب النزول                      | 16     |
| ترتيب الآيات والسور               | 21     |
| الباب الثاني: تفسير القرآن العظيم | 31     |
| التفسير                           | 31     |
| نشأت التفسير                      | 33     |
| التفسير في عصر التابعين           | 35     |
| ألوان التفسير                     | 36     |
| الباب الثالث:                     | 52     |
| تعريف المعجزة                     | 53     |
| أنواع المعجزة                     | 53     |
| مراحل التحدي في القرآن الكريم     | 54     |
| القدر المعجز من القرآن الكريم     | 55     |
| وجوه التحدي في القرآن الكريم      | 55     |
| المراجع                           | 56     |

والحمد لله رب العالمين